بِلشَا

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الخليوي ، عبد الجبار
بِلشا : رواية/تأليف: عبد الجبار الخليوي.
– ط1– القاهرة: الوادي للثقافة والإعلام، 2018.
208 ص؛ 20 سم.
تدمك: 9 52 6515 977 978
1– القصص العربية
أ– العنوان 813

* تـاريخ الإصـدار: 1439هـ -2018م
* حقـوق الطبـع: محفوظة
* رقـم الإيـداع: 1807/ 2018م
* الترقـيم الـدولي: ISBN: 978 - 977 - 6515 - 52 - 9
* تحـذير: لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هـذا الكتـاب بـأي شـكل مـن الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل (المعروفـة منهـا حتـى الآن أو مـا يستجد مستقبلًا) سواء بالتصوير أو بالتسجيل على أشرطة أو أقراص أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن كتابى من الناشر أو المؤلف.

الوادي
للثقافة والإعلام
ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
darannshr@hotmail.com

عبد الجبار الخليوي

بِلشَا

رواية

لـذة الانتقـام لا تـدوم سـوى لحظـة، أمـا الرضا الذي يوفره العفو فيدوم إلى الأبد..

(مثل إسباني).

إن الشخوص والأحداث في هذه الرواية من نسج الخيال، ما لم نذكر أسماء صريحة، فإن صادف وجود أي تشابه بينها وبين أشخاص حقيقيّين سواء من حيث التسمية أو السلوك أو الأفعال، فإنها محض مصادفة لا غير..

(01)

أقامت (سحر) حفلة صاخبة في قاعة أحد الفنادق المشهورة، بعد أن تمت الرؤية الشرعية لخطيبها (نجيب)، واقتنع كلا الطرفين بالآخر .. سافرت لمدينة باريس، متوجهة لأفخم دور الأزياء؛ من أجل اللقاء بأكبر مصممي فساتين السهرة في العالم .. دعت إلى الحفلة كل صديقاتها القديمات والجديدات، من مدرسات وطالبات رافقتهنّ في مرحلتي الثانوية والجامعة، ودَعَتْ بعض بنات (العائلة) الكريمة القريبات لقلبها .. أرسلت لهنّ بطاقات دعوة خاصة، من النوع الفاخر، وكتبت في أسفل البطاقة ملاحظة: (رجاء عدم اصطحاب الأمهات) .. زينت البطاقة بالخط العريض بكلمات: (وداعًا للعزوبية)، واعتبرتها دعوة حفل لتوديع حياة (العزوبية)، وطلبت من منسقة صالة الحفل بأن يكون لون كل ما في الصالة متناسقًا مع لون فستانها البنفسجي ودرجاته.

(سحر) فتاة في عقدها الثالث، وكل ما فيها يصرخ أُنوثة متمردة .. تعيش في مجتمع يُجاهد من أجل المحافظة على موروثاته الاجتماعية .. يضج جسدها باللون الخمري المائل للاحمرار، تعيش بين ثلاثة إخوة، هي البكر بينهم، لأب اسمه (عامر)، فتح الله عليه من أبواب فضله وخيراته .. كان موظفًا نشطًا في أحد المصارف، لا يعرف مفردة الفشل في قاموس حياته .. عمل في فترة العصر بمكتبه العقاري، وعندما شعر بأن الوظيفة بالمصرف تُعيق حركة نشاطه العقاري، لم يتردد بتقديم استقالته منه، وقد لقيت استقالته رفضًا من قبل إدارة المصرف في بداية الأمر؛ نظرًا لنشاطه وحماسه المنقطع النظير في العمل، ودخل سوق العقار في أول بداياته، ما قبل أيام الطفرات العقارية المتعاقبة في البلد، فرزقه الله من حيثُ لا يحتسب .. نجح في استثمار أمواله بمشاريع متنوعة، وأهم أنشطته الاستثمارية (المدارس الخاصة)، التي أصبحت - فيما بعد - ظاهرة غير صحيحة في البلد، ولقد عملت ابنته (سحر) معلمة في إحدى مدارس والدها بعد تخرجها من الجامعة مباشرة .. لم تنتظر قبول تعيينها في إحدى مدارس وزارة التعليم، فعاشت حياة الترف والسفر، والبحث عن آخر (تغريدة) للموضة والسياحة والسفر .. لا تعرف الطريق إلى المطبخ غير تنسيق مكوناته وتجديدها، وتناول الوجبات الغذائية فيه، وتذوق أنواع طعام الطباخة .. لم تفكر في يوم من الأيام

أن تقوم بترتيب غرفتها الخاصة، أو حتى تهيئة سرير نومها، وتظن أن مثل هذه الأعمال من واجب الخادمات في المنزل.

للمرة الثالثة التي يتم فيها عقد قران بنت خالتي (سحر)، بعد أن اقتنعتْ أخيرًا بي عريسًا لها .. تقدمتُ لها مرتين فرفضتْ .. كانت تُعلل سبب رفضها لي بعذر أنها عاشت معي فترة طفولتها، وتعتبرني مثل أخيها الكبير، رغم معرفتها حقيقة سطوة حبي لها، وتعاقب رفضها لي عدة مرات لم يزدني إلا إصرارًا على التقرّب منها وخطفها قبل الآخرين، لكن (سحر) في حقيقة الأمر .. وبعيدًا جدًّا عن عُذرها الرسمي الذي تُغرد به بين أهلها وصديقاتها ومعارفها بخصوص رفضها الخطبة، فأنا أعرف مشاعرها وطريقة تفكيرها جيدًا .. إنها تُخفي نظرتها الاجتماعية لنا، فعائلة خالتها (لطيفة) من ذوي الدخل المحدود، وتُقيم في إحدى الأحياء المتواضعة؛ لذا فإنها لا ترى أن اقترانها بي صفقة اجتماعية ناجحة.

تقدمتُ لخطبة (سحر) للمرة الثالثة عندما علمتُ بتعثر خطبتها في المرة الأولى وفي المرة الثانية؛ فلقد أحببتها منذ طفولتنا، فكانت رفيقتي في أيام الصبا .. عشقتُ كل شيء فيها، كنتُ أمثل معها دور الزوج والأب في كثير من الأحيان، وكنتُ أرفض أن يأخذ غيري من الأطفال مثل هذا الدور معها .. كانت دائمًا تتقمصُ معي دور الزوجة الطيبة والأم

الرائعة، وأنا لا أقبل غيرها من بنات معارفنا أن تلعب معي دور البطولة .. كانت (سحر) القائدة لنا جميعًا في كل أنواع الألعاب .. لقد عشقتُ هذا الدور القيادي فيها، لكنها رفضت الاقتران بي زوجًا عندما تقدمتُ لخطبتها مرتين، رغم تصريحي لها بالحب أحيانًا، وتلميحي به أحيانًا أخرى؛ لذا لم أتوانَ عن خطبتها للمرة الثالثة، عندما وجدتُ الفرصة مناسبة، رغم أن والدتي (لطيفة) قالت لي بصراحة لأكثر من مرة: ليس لك (نصيب) في (سحر) يا (عبد المجيد) .. كان طلاقها في (الخطبة الأولى) حسب رغبتها؛ بسبب ما رأت من بُخل وطمع في خطيبها (نجيب)، في أكثر من موقف معه .. بعد (عقد القران)، عرفتْ طَمعه في ثروة والدها، منذُ أول خروج لها معه بدعوة منه للعشاء في أحد المطاعم الشهيرة بالمدينة .. بداية ظنته يُمازحها حين طلب منها أن تدفع قيمة فاتورة المطعم، فسارعت (سحر) بفتح حقيبتها ماركة (شانيل)، ودفعت قيمة الفاتورة، لكنه كرر هذا التصرف معها في اللقاء الثاني والثالث؛ بل في آخر لقاء له معها فاجأها بقوله:

- إن والدك غني، ويملك الكثير من المال، ما ضرَّكِ أن تدفعي قيمة فاتورة عشاء بمبلغ زهيد مثل هذا؟!

فاستغربتْ هذا الكلام كثيرًا، واستنكرته في حينها، ثمّ أخبرت والدها بهذا الأمر، فقال لها:

- هذا الرجل ليس لكِ (نصيب) معه.

فهاتف خطيبها (نجيب)، وطلب منه طلاق (سحر)، فطلقها بعد صراع مرير معه في قاعة المحكمة؛ من أجل إعادة كافة (المهر)، بما في ذلك (الشبكة) .. أما خطيبها الثاني الذي كان اسمه (سعدًا)، فهو ابن عائلة ثرية، اقتنعت به واقتنع بها بيوم (الرؤية الشرعية)، بحضور أحد المحارم، ثمّ اكتشفت بعد عقد القران بعدة أيام بأنه رجل لا يزال يعيش في عقلية طفل صغير، رغم بلوغه نهاية العشرينيات من عمره، يعشق ألعاب (البلاي ستيشن) بصورة غير طبيعية، يُحدثها كثيرًا عن هذه الألعاب الإليكترونية، وعن أسمائها، وعن انتصاراته وبطولاته فيها، وعن ممتلكاته الخيالية في هذه الألعاب (من أموال وأرضٍ وسيارات) بكل لقاء معها؛ كأنه واقعٌ يعيشه .. لم تستطع (سحر) أن تتحمل مثل هذا الصنف من (الصبيان)، الذي لا زال عقله يعيش في مرحلة فترة الطفولة والمراهقة، خصوصًا بعد فشلها في محاولة إيقاظ روح الرجولة بداخله، واعتبر خطيبها الثاني (سعد) موقفها هذا بأنه تحدٍّ له؛ ونوعٌ من أنواع الهيمنة والسيطرة على خصوصياته منذ البدايات، وظن في نفسه كأنه في مباراة من مباريات بطولاته الإليكترونية، وعليه الانتصار فيها، فشرحتْ لوالدتها حقيقة الأمر الذي بينها وبين خطيبها الثاني

بالتفصيل، فاستوعبت والدتها أمر الشباب المراهق الذي لا يفقه احتياجات الزوجة، وقالت لها:

- هذا رجل آخر ليس لكِ (نصيب) معه يا (سحر)، حسبنا الله ونعم الوكيل.

وسرعان ما نقلت أمها (صفيّة) الخبر لأبيها (عامر)؛ ليطلب من (سعد) طلاق ابنته (سحر)، فيرفض (سعد) طلاقها، ويريد أن يُحقق فوزًا وانتصارًا في هذه العلاقة الاجتماعية؛ فألعابه الإليكترونية علمته بأن الحياة فوزٌ وانتصارٌ، فَتَدَخَّلَ بعض معارفه المحبين للخير، وطلبوا من (عامر) إعادة له كل ما دفع من مهر ومجوهرات، لكن خطيبها (سعدًا) رفض طلاقها، فلجأ والدها لقاعة المحكمة مرة أخرى؛ كما فعل مع خطيبها الأول (نجيب)، وأخذت القضية في المحكمة أكثر من شهر، ليصدر فيها حكم بالطلاق، ومن سألهم من أهل وأقارب عن سبب طلاق (عقد المهرين) لابنتهم (سحر) قالوا له: قسمة و(نصيب).

وجدتْ (سحر) في ابن خالتها (عبد المجيد) المواصفات التي تبحث عنها كل فتاة بعمرها، ولامت (سحر) نفسها وانتقدتها كثيرًا؛ كيف كانت ترفض الاقتران بمثل هذا الرجل الرائع؟! كيف لم ترَ المواصفات الرجولية الكاملة التي يتمتع بها ابن خالتها؟، بينما كانت هي قريبة جدًّا منه لرؤية أدبه وخُلقه عن قُرب .. لقد كان من السهل عليها التعرف على

أخلاقيات ابن خالتها وفحصها بدقة .. كانت الفرصة متاحة للاثنين معًا، ولكن (سحر) لم تُلاحظ ابن خالتها (عبد المجيد)، الشاب المهندس، ذا الاختصاص النادر في علم الحاسب الآلي، والذي يعمل في شركة اتصالات أجنبية براتب ممتاز جدًّا، يتناسب مع مكانتها العائلية وطموحاتها الاجتماعية.

أقام لنا العم (عامر) حفلة زواج تليق بتطلعات واهتمامات ابنته (سحر)، وتُناسب قيمتها الاجتماعية، في أكبر صالات المدينة وأفخمها .. دفع العم (عامر) مصاريف حفلتيْ الرجال والنساء .. قُمنا بجولة سياحية في بعض الدول الأوربية، وكانت زيارتي الأولى لتلك الدول؛ لقضاء أيام شهر العسل في ربوعها، حيث الطبيعة الجميلة، فأتخمتْ (سحر) متابعيها في (السناب) و(الإنستغرام) بالصور والمقاطع السِّلْفية الكثيرة لنا، في كل مكان نذهب إليه لابد أن تكون لقطة الكاميرا حاضرة؛ لتسجيل أحداث الثانية بالتفصيل. وسرعان ما رجعنا من السفر .. وكعادتها أيام السعادة قليلة، وساعاتها جريئة، وتمر عابرة سريعة، لا تلبث حتى تنساها بنفس السرعة، بينما يتجشم الحزن ليتدفق عليك مرة واحدة، وهي سنة الحياة، ولكن ليس أيّ بشر يتحمل.

بدأت عجلات حياتنا الزوجية بالدوران .. أقمنا في (الفيلا) المقدمة لنا هدية من والدها بمناسبة زواج ابنته (سحر) .. لم أعترض على

السكن في منزل صك ملكيته باسم زوجتي؛ فلا فرق بيني وبينها، نحن شُركاء في كل شيء بالحياة، هذه كانت نظرتي وقناعتي، وليس تبريرًا لسكني في منزل زوجتي ..

تقع (الفيلا) في أحد الأحياء الجديدة الراقية بشمال المدينة المرتفعة الأسعار .. قامت خالتي (صفيّة) بتأثيث (الفيلا) تأثيثًا كاملًا حسب رغبة ابنتها (سحر) وطموحها؛ هدية لها بمناسبة زواجها .. استقدمنا خادمتين قبل ولادة زوجتي (سحر) بعدة شهور، وقبل مجيئهما كانت خادمتها الخاصة في منزلهم تشرف على خدمتها، أحضرتها معها من بيت أهلها مع عفشها الخاص، جاءت لمنزلنا بعد عودتنا من شهر العسل مباشرة .. كان شرط زوجتي أن لا تكون الخادمتان من نفس البلد؛ حتى لا يتآمران فيما بينهما علينا .. كانت الخادمة الأولى شرق آسيوية اسمها (ليدا)، فجعلتها مشرفة على المطبخ، والخادمة الأخرى أفريقية اسمها (بِلشا) تُدير باقي شؤون المنزل، من تنظيف وغسيل، وبين هاتين الخادمتين عدم انسجام في كل شيء، بدءًا من عدم التفاهم بينهما؛ بسبب انعدام لغة الحوار، فالخادمة (بِلشا) لا تتحدث اللغة الإنكليزية، ولا تفهم منها شيئًا، ومكتب الاستقدام في بلدها قدم لها دورة مكثفة في مبادئ اللغة العربية، لمدة ثلاثة أيام متتالية .. لغة بسيطة فيما يخص شؤون المنزل؛ كي تستطيع أن تتعامل مع تعليمات ربة

البيت بسهولة ويُسر، أما الخادمة (ليدا) فلا تعرف اللغة العربية، ولا تفهم منها شيئًا، ولا تحتاج أن تنتسب لدورة خاصة مكثفة في اللغة العربية في بلدها مثل (بِلشا)؛ فسيدتها تتفاهم معها باللغة الإنكليزية التي تُجيدها، ولا تُريدها أن تتعلم العربية، ولم تُفكر في يوم ما بدعوتها للإسلام؛ حيث تعتقد أن مثل هذا العمل ليس من شأنها، ولا هو من اختصاصها، رغم محاولتي من أجل إقناعها بدعوتها للإسلام؛ لعل الله أن يهديها إليه، وأخبرتها بأن الدعوة إلى الله جاءت بتكليف لكل المسلمين، كما ورد في الحديث النبوي الشريف، الذي قال فيه محمد ﷺ: (فوالله لأن يُهدى بك رجلٌ واحدٌ خير لك من حُمر النّعم)، وقال كذلك: (بلغوا عني ولو آية)؛ لذا أصبحت الخادمتان في ظل هذه الظروف تتكلمان اللغة العربية الغريبة جدًّا على لغة العرب، فبالغت كل منهما كثيرًا في تأنيث الفاعل بصورة بشعة، وبعد مرور فترة من الزمن دبت بين الاثنتين بعض المشاكل .. كان مصدر نشأتها الغيرة والحسد بينهما، ثمّ تحول هذا الخلاف تدريجيًّا لعداء شرس وكراهية واضحة للعيان؛ بسبب سوء تصرفات (سحر)، التي تفضل الخادمة الآسيوية (المسيحية) على الخادمة الأفريقية (المسلمة)، ولم تتورع (سحر) بين فترة وأخرى عن تهديد الخادمة (بلشا)؛ عند حدوث أقل خطأ أو تقصير في العمل منها، تتوعدها بالعقاب والترحيل، والخصم من المرتب

الشهري، فتكتظ في نفس (بِلشا) هموم الحقد وأفكار الكراهية، وتنهشها كزنابير تجمعت على (فطيس)، فتكره (بِلشا) الحياة بكل تفاصيلها، وتنقم على كل من يعيش فيها من البشر، ولا تملك (بِلشا) غير أن تقبل بمثل هذا الواقع المرير الذي نُفيتْ لوطنه، عليها أن تتعايش معه بأي وسيلة متاحة لها، رغم عدم قناعتها الكاملة بنفيها لهذا الوطن .. لقد جاءت (بِلشا) مكرهة ومجبورة لمثل هذا المنفى، بأمر من أبيها .. ليس لها مشورة في هذا الأمر؛ لتساعده في زيادة مصدر دخله؛ بسبب ظروف معيشته المتدنية، وهكذا تأتي الأيامُ للخادمة (بِلشا) بحروق داخلية لا يمكن رؤيتها، لتجعل من أعماقها رمادًا خاليًا من المشاعر الإنسانية، فتنتابها حالات نفسية من الضمور والانكماش، فتعزلها عن من حولها من البشر، وتطير بعقلها إلى جزر مأهولة بالخوف وعدم الثقة، فتُفكر (بِلشا) جديًّا بمسألة الانتقام لنفسها المهزومة، أو تتخذ قرار الانتحار كحل لراحتها، وقد تؤدي حالات الكراهية والعزلة النفسية عن المجتمع إلى صراعات عنيفة داخل النفس البشرية.

حفلة غريبة من نوعها تُقيمها الخالة (صفيّة) لابنتها (سحر)؛ بمناسبة حملها الأول، وبروز معالم بطنها المنتفخة .. ينتقدها كثير من المدعوات على مثل هذا التصرف المجنون، ويتهامس بعض من في صالة الحفلة حول التبذير المبالغ فيه، ويتهمن الخالة (صفيّة) بعدم خوفها من

الحسد، ومن شر عيون الناس، التي لا تعرف ذكر الله، فتنصحها إحدى المقربات لها بجمع بقايا الماء من قوارير الحفلة، والغُسل منه لمدة ثلاثة أيام بعد أن تتم الرقية الشرعية فيه.

شد انتباه المدعوات كثيرًا ظهور (سحر) بين الحاضرات بفستان خاص بالحمل؛ لتُبرز انتفاخ بطنها وتكوره بصورة واضحة، وبين دقيقة وأخرى تضع (سحر) يدها على بطنها؛ كأنها تتحسس نبض جنينها. وبدأت (سحر) تتوعدني منذ بداية شعورها بأعراض الحمل، ومشاكله الكثيرة التي عانيتُ منها، أنه إذا جاء المولود ذكرًا - حسب تشخيص ما كشفت عنه دكتورة النساء - فسيكون اسمه (عامرًا) على اسم أبيها الغالي، وكيف لا أوافق على تسمية ابني باسم العم العزيز؟! وبدون شروط وقيود من قبل (سحر) وأمها المؤيدة لها والداعمة في الخفاء، ضاربًا الموروث الشائع في المجتمع العربي عن تسمية الأبناء بأسماء أجدادهم من الأب بعرض الحائط، فالعم (عامر) يُعتبر الممول الرسمي لكل حركة مصروف يتفتق في حياتنا الزوجية، سواء كان هذا المصروف كبيرًا أو تافهًا صغيرًا، والعم (عامر) صاحب أيادٍ بيضاء معنا ومع الجميع، أما والدي فله مني الدعاء والرحمة والمغفرة.

تضع زوجتي (سحر) طفلها الأول (عامرًا)، بعد معاناة في أيامها الأخيرة قبل الولادة، بعملية (قيصرية) بطلبٍ منها، رغم نصيحة

الدكتورة لها بالولادة الطبيعية؛ فهي لا تتحمل آلامها على حد زعمها، فيطيرُ قلب أمها (صفيّة) فرحًا بالمولود الجميل، وأنا لا أعلم ما سر فرحها وسعادتها بمجيئه؛ هل لأنه الحفيد الأول لبنتها البكر؟ أم بسبب اسمه (عامر) الذي سبق ولادته بعدة شهور؟ وتملأ الفرحة مساحة جناحها في المستشفى، ولم يسلم الممر المؤدي لجناحها من زينة الفرحة .. أما والدها (عامر) فلم يكن يُريد أن يُظهر سعادته بكل تضاريسها، وأراد أن يدفن جزءًا من فرحه بين باقات الورود التي حملها بين يديه، واكتفى بإظهار بعض السرور، ولا أعلم لماذا.

تطلب (سحر) من (ليدا) الاعتناء والاهتمام بابنها (عموري)، ورعايته أثناء فترة غيابها عن المنزل، وتؤكد عليها ضرورة عدم تركه لرعاية (بِلشا) واهتمامها مطلقًا. فتنظر (بِلشا) للطفل من بعيد نظرة غيرة من (ليدا)؛ لنيلها مثل هذه المكانة الراقية، فهي لا تستطيع أن تداعبه أو تقترب منه، وتدفعها رغبة في أن تلعب معه كما تفعل (ليدا)، فراح قلبها يحترق كراهية من (ليدا) التي تحضن (عامرًا) بين يديها، وتضمه لصدرها، وتضحك معه، وتتصنع باحتراف أسلوب تسليتها معه لتُغيظ (بِلشا).

طلبت (بِلشا) من (سحر) عدة مرات منذ مجيئها من بلدها أن تقوم بزيارة خاصة لخالتها (جميلة)، التي تسكن في أحد الأحياء

الشعبية في مركز المدينة، ذات البيوت الطينية، المحافظ سكانها على نمط الطراز التُراثي القديم للبناء والتصميم، الذي يُحاكي تاريخ الماضي؛ من حيث طريقة توزيع الغُرف المنتشرة حول الباحة الرئيسة للمنزل .. بيوت لم تتعرض لها آلة الهدم والخراب والتطوير، فحافظت على الموروث الثقافي، لكن (سحر) كانت ترفض طلبها بشدة، وبدون مناقشة؛ سدًّا لهذا الباب، الذي تعتبره من المنكرات بالنسبة للخدم، دون إعطاء (بِلشا) تبريرًا مقنعًا على رفضها لمثل هذا الزيارة، وعندما علمتُ عن إصرار (بِلشا) على الذهاب لرؤية خالتها، استطعتُ في إحدى الأمسيات إقناع (سحر) بتنفيذ هذه الرغبة الإنسانية للخادمة (بِلشا)، على أن تشترط عليها: (أن تكون هذه الزيارة هي الأولى والأخيرة لخالتها، وأن لا تتجاوز مدة الزيارة الساعة الواحدة).

عرفتُ من هاتف (بِلشا) الخلوي موقع سكن خالتها (جميلة)؛ فقد أرسلته لها عبر تطبيق (الواتساب) .. هم يُقيمون في أحد الأحياء الشعبية الفقيرة، طلبتُ من (سحر) مرافقتنا في هذه الرحلة الأثرية؛ لاكتشاف المعالم التراثية لمركز المدينة .. أنا أعرف هذا الحي الشعبي جيدًا منذ أيام الشباب .. كان يُقيم فيه بعض زملاء الكلية الذين درسوا معنا، ثمّ تفرقت بنا السبل بعد التخرج من الجامعة، كل منا شق طريقه الخاص في الحياة،

وبقيت ذكريات بعضنا مع بعض عالقة في رحم القاعات الدراسية .. أعرف أن أغلب أهل هذا الحي الشعبي يعيشون دون مستوى الفقر.

وصلنا لمنزل خالة (بِلشا)، التي تُدعى (جميلة)، بفضل الله ثمّ بفضل خدمات تطبيق خرائط (قوقل)، ويستغرب أبناء الجيل الجديد كثيرًا: (كيف كان الناس يتواصلون فيما بينهم قبل ظهور مثل هذه التطبيقات الإليكترونية المعاصرة؟!)، وهم مع الأسف لا يعلمون بأن مثل هذا التطبيق قد ألغى من العقل ذاكرة المكان .. وصلتُ لمنزلها بعد أن اجتزتُ عدة أزقة وممرات ضيقة مخنوقة، بعضها ذات اتجاه واحد في خط سيرها، كان علي في بعض الأحيان أن أتوقف عند طرف النافذ، منتظرًا مرور السيارة القادمة من الطرف الآخر .. ترجلتْ (بِلشا) من السيارة عند باب منزل خالتها الحديدي ذي اللون الأخضر .. كانت تحمل معها مجموعة من أكياس الهدايا البلاستيكية؛ لتقوم خالتها (جميلة) بإرسالها لأهلها بمعرفتها الخاصة .. سمعتُ أصوات نساء كثيرات يقفن خلف الباب مباشرة؛ يُرحبن بحرارة بقدوم (بِلشا)، بكلمات تطغى عليها الفرحة والسعادة .. لم أفهم منها شيئًا غير نغمة المفاجأة والدهشة لرؤيتها .. كلام نساء متداخل بعضه مع بعض، ذو نغمة خاصة بلغتهنّ، وصراخ رغم وضوح مشاعر سعادتهنّ لرؤيتها، كأن خالتها (جميلة) قد أعدت لها حفلة خاصة تُناسب شرف حضورها .. مجموعة من نساء

معارفها وقريباتها؛ لتكون مفاجئة لها عند حضورها. في طريقي لمنزل (جميلة) لم أسلمْ من عبث أطفال الحي وشغبهم، حينما تراكضوا خلف سيارتي من كل جانب .. جلس البعضُ فوق صدام السيارة الخلفي، وتمدد آخرون فوق صندوقها، ممسكين بأي جزء متاحٍ لهم خوفًا من سقوطهم؛ مما أزعجني، وذكرتني تصرفاتهم بأيام طفولتي المبكرة وعبثها، ومثل هذه التصرفات (الصبيانية) من الأطفال جعلتني أقود سيارتي ببطء شديد؛ خوفًا على الأطفال من السقوط؛ ومن ثمّ التعرض إلى مسؤولية الحادث، وقبل أن أغادر المكان ناديتُ على (بِلشا)، وقلتُ لها: سوف أعود لكِ بعد ساعة من الآن، ثمّ التفتُ إلى (سحر)، وقلتُ لها:

- ما رأيك أن نرصف السيارة في الشارع الرئيسي، أفضل من بقائنا هنا، في هذا النافذ الضيق؟! الذي لا أعلم كيف يتنفس سكانه!

فردت زوجتي (سحر) بتضجر وقالت:

- أُف، أستغفر الله، ليتني لم آتِ إلى هنا معك، لأول مرة أعلم أن في مدينتنا حيًّا بمثل هذه الصورة المُزرية، لنذهب لذلك الدكان الواقع في طرف النافذ؛ لتشتري لنا قارورتي ماء.

دخلتُ الدكان، فطلبتُ من صاحبه (اليماني) قارورتي ماء صغيرة، فلم يُلبي طلبي؛ بل أظنه لم يسمع صوتي؛ لشدة انشغاله .. كان يخوض

معركة نقاش حادة؛ وبصوتٍ مرتفع مع رجل متقدم في العمر .. نصف أسنان فكية متساقطة .. يتكلم بهدوء جدًّا .. كلمة كلمة .. كأنه فوق منبر في صلاة جمعة، يضع فوق رأسه (شماغًا) أحمر اللون بدون عقال، وتحته (طاقية) بيضاء اللون، استقرت مع (الشماغ) في مؤخرة رأسه، كاشفًا منابت مقدمة شعر رأسه الأشيب .. سمعتُ الاثنان يُقسمان (بالله العظيم) أن حساب كل منهما صحيحٌ، يحملُ صاحب الدكان (اليماني) ذو الأذن اليسرى المقطوع نصفها العلوي .. دفتره بين يديه ليقربه عند وجه الرجل المصر على رأيه بدقة حسابه، بينما يُخرج الرجل من جيبه ورقة مُسطّرة كبيرة، ويفتحها أمام وجه (اليماني) ويقول له:

- يا (زيد) انظر لمشترياتي في هذا الشهر، مجموع قيمتها 275 ريال، وليس كما تدعي أنت 375 ريال.
- راجع جَمعك يا عم (نصيب) في الورقة جيدًا، خُذ هذه الآلة الحاسبة الكبيرة.
- أنا راجعت الحساب مرتين في الليلة الماضية، بل أنت يا (زيد) عليك مراجعة جَمعك، ومطابقة عناصر بنود المشتريات، ربما سجلت في حسابي أشياء لا تخصني .. قارن بين ما دونتَ أنت لي في ورقتي الخاصة هذه، وبين ما قيدته على حسابي في دفترك الخاص بحسابات الزبائن، فربما تجد الفرق بين الحسابين.

- يا عم (نصيب) .. نعم هذا زيت وعلبة حليب جاف وكيس رز (بشاور) وزن خمسة كيلو، لم أسجلهما في ورقتك.
- يا (زيد) إن مثل هذه الأنواع التي ذكرتها ذات الماركة التجارية المشهورة لا نعرفها في بيتنا؛ بسبب غلاء أسعارها .. نحن نستخدم الأصناف الشعبية الرخيصة الثمن كما تعلم، انظر يا (زيد) لسجلاتي في الشهور السابقة، وقارن بين الاثنين .. لم أشترِ منك في يوم ما مثل هذه الأصناف (الغالية)، ثمّ لماذا لم تسجلها في ورقتي الخاصة كعادتك؟
- يا عم (نصيب)، هذه الأصناف أذكرها جيدًا، جاءت زوجتك أم (مبارك) حفظها الله لك وأخذتها بنفسها، وقالت لي سجل القيمة على حساب زوجي (نصيب).
- وكيف عرفت أنها أم مبارك؟ ولا أذكر بأنها قد جاءت وطلبت منك شيئًا قبل هذا الشهر.
- يا عم (نصيب)، أنا حملت معها الأكياس لمنزلكم؛ لأتأكد بنفسي أنها زوجتك أم (مبارك)، ومنزلكم أعرفه جيدًا.
- هذا ليس بدليل يا (زيد)، وأعرف بأنك لا تُخطئ منزلنا أبدًا، لكن هل سبق أن أخذتْ زوجتي منك أي (طلبية)؟ وهل أنا فوضتك بإعطائها؟

- طبعًا لا، لم يسبق لها أن جاءت وأخذت قبل هذا الشهر، ولم تُفوضني أنت من قبل.
- إذن، لماذا تُقيّد هذه الأشياء في ذمتي؟ فربما تكون هذه المرأة قد ضحكت عليك وأنت لا تعلم، نحن لا نُغلق الباب إلّا في آخر الليل .. اعتدنا على هذه العادة منذ أن كان الأولاد يُقيمون معنا، منذ زمن الطيبين، عندما كانت مدينتنا هادئة، يغشاها الأمن والأمان، ليس فيها مثل هذا الكم الهائل من الغُرباء، فربما المرأة خدعتك بحمل هذه الأشياء لمنزلنا يا (زيد)، وعند باب منزلنا أخذتها منك وشكرتك على مساعدتها، وعندما رجعتَ قافلًا لدكانك، خرجتْ من دهليز منزلنا الطويل، وذهبت لمنزلها الخاص.
- هذا غير صحيح أبا (مبارك)، قل غير هذا الكلام، جزاك الله خيرًا.
- يا زيد: ليس لك بذمتي سوى (275) ريال، ولن أدفع لك ريالًا واحدًا زيادة.

عندها تدخلتُ بعد سماع هذا الحوار الذي دار بينهما، فقلت لهما: سأدفع لكما هذا الفرق، فأخرجتُ محفظتي ففتحها وسحبت منها مئة وريالين، فقلت لصاحب الدكان (زيد) هذه المائة ريال لتسوية فرق الحساب بينكما، والريالان قيمة قارورتي ماء لو سمحت.

أخذ (زيد) المبلغ، وشكرني على هذا الموقف الإنساني النبيل، وأخذتُ منه الماء بعد أن وضعه لي في كيس بلاستيكي صغير جدًّا، وعند عودتي لسيارتي وجدتُ زوجتي تغلي غضبًا لتأخر عودتي؛ بسبب طول فترة انتظارها لي .. لا شك بأني تأخرتُ عليها كثيرًا .. انشغلتُ بمتابعة الحوار الذي دار بين كل من (نصيب) و(زيد)، ومن سوء الحظ أني تركتُ هاتفي الخلوي في (شاحن) السيارة، فحكيت لها قصة خلاف العم (نصيب) مع صاحب الدكان اليماني (زيد)، فضحكت كثيرًا، وقالت: خيرًا فعلت يا (عبد المجيد)؛ (فالصدقة تُطفئ غضب الرب كما يُطفئ الماء النار ...)، ثم قالت لي زوجتي ووجهها يرسم خوفًا شديدًا في ملامحه، وتُشير بيدها لجهة الباب:

- انظر لهذا الرجل الغريب، الذي يقف عند باب السيارة من جهتك، وينظر إليك نظرة متحفزة وهو يُحرك (مسواكه) الصغير بين شفتيه، ملتذًّا بطعم ريقه، محركًا إياه يمينًا وشمالًا .. لقد امتصتْ عيناه ما استطاعت من تفاصيل وجهك.
- إنه العم نصيب (أبو مبارك) .. الرجل الذي حكيتُ لكِ عنه توًّا.

فتحتُ الباب وخرجتُ من السيارة، ووقفتُ أمامه؛ لمعرفة سبب مجيئه، فتبين لي أنه يُريد أن يتحدث معي، فقال لي وأثر الحزن متورط بين كلماته:

- يا بني، رغم أني صادق فيما قلتُ لصاحب الدكان (زيد)، ورغم أني لا أشك في أمانة (زيد)، إلّا أني لا أقبل أن تتحمل المائة ريال كاملة لوحدك .. جئتُ لأشاركك فيها، ما ذنبك أن تتحمل خطأ غيرك؟!

فمد يده لي باستحياء، التي كانت تحمل ورقة الخمسين ريالًا، فرفضتُ أخذها منه، فاشترط قبول رفضي أن أذهب لمنزله؛ لتناول فنجان قهوته، فرفضتُ الذهاب معه؛ بحجة زوجتي معي التي لم ينتبه لوجودها في المقعد الأمامي؛ بسبب زجاج نوافذ سيارتي المظلل .. وعدته خيرًا في قادم الأيام بزيارة خاصة لمنزله بالمستقبل، إذا كان في العمر بقية .. طلبتُ منه رقم هاتفه الخلوي؛ كي أطمئنه بأني صادق في زيارته، فقال لي دون مقدمات:

- أنا لا أعرف كم رقم هاتفي النقال .. لقد عجزتُ عن حفظ الأرقام الطويلة .. صعب عليَّ يا ولدي حفظها.

فأخرج من جيب ثوبه الطويل الأيمن هاتفه الخلوي الصغير (نوكيا)، وطلب مني تسجيل رقم هاتفي في قائمته؛ ليتواصل معي لاحقًا، وقال لي: لقد قضيتُ كل حياتي العملية قبل تقاعدي فراشًا في إحدى المؤسسات الحكومية، وتلطفًا في مشاعرنا الإنسانية نحن معشر الفراشين يُسمون وظيفتنا في سجلات الدوام الرسمية ومسيرات الرواتب (مراسلين) .. تقاعدتُ عن العمل في المرتبة الرابعة قبل عدة سنوات، قبل إعدام هذه

الوظائف في ميزانية المؤسسات الحكومية .. عملت عدة سنوات في سوق (الحراج)؛ نظرًا لحاجتنا المادية في وقتها؛ فالمرتب لا يكفي .. كان أولادي الثلاثة يدرسون في الجامعة .. كنت أبيع وأشتري في (الأثاث المستعمل) .. استأجرتُ دكانًا في السوق، ثم تركتُ العمل في (الحراج) قبل تقاعدي من الوظيفة بعدة شهور، فرميت بقايا (الأثاث) الذي لم أتمكن من بيعه بغرفة مهجورة في الملحق العلوي من منزلنا .. كانت الغرفة تدب فيها الحياة عندما كان يستخدمها الأولاد مجلسًا لهم ولأصحابهم، وكل يوم أنوي بشد عزم همتي لبيع ما تبقى من أثاث المحل المركون في غرفة الملحق العلوي، إلّا أن آفة الكسل والتراخي والتأجيل يأتمرون عليّ ويهزمون نيتي، ويُطيحون بمشروع همتي، ويقتلون أي مبادرة جديدة تنهض بعزيمتي .. كل ما ملكته في الحياة الفانية بيت شعبي صغير، وقطعة أرض منحت لي من قبل البلدية في حي يسمونه (ذوي الدخل المحدود) .. رفضتُ بناءها بمنحة قرض من الدولة؛ نظرًا لبعدها عن مركز المدينة، وعن مقر عملي بالذات، فعرضتها للبيع، هذا كل ما ورثته في الحياة بعد تقاعدي، بعد مسيرة عمل متعب دام لأكثر من نصف قرن. يا ولدي لا تزال الحياة فيها خير، طالما نرى أمثالَك يمشون بين الناس، ويسعون بالخير .. يا ولدي اكتب اسمك؟ وضع أمامه في جهاز هاتفي رقم 49 لو سمحت.

- جزاك الله خيرًا يا عم (نصيب)، والدنيا لا زالت فيها خير كما تفضلت، وذلك ببركة دعاء أمثالك من الطيبين، والإنسان لن يأخذ من هذه الدنيا سوى نصيبه المكتوب له، وسيرحل عنها قريبًا، بقطعة قماش بيضاء، تكفي لستر عورته، ثمّ استرسلتُ في الكلام معه، وقدمتُ نفسي له وقلتُ: معك ابنك (عبد المجيد). وسألته عن سبب اختياره للرقم 49 دون غيره من الأرقام؟
- يا ولدي (عبد المجيد) هذه الأرقام أنا اخترعتُ فكرتها من أجل معرفة الأسماء المخزنة في جهاز هاتفي الخلوي، الذي تحتوي ذاكرته حاليًا على (48) اسمًا أعرفهم واحدًا واحدًا حسب الأرقام، ورقمك أنت (49)، وعند حاجة الاتصال بك؛ سأبحث عن رقم (49) في قائمة الأرقام .. تعلمتُ قراءة الأرقام القصيرة، وأستطيع حفظ ما تحويه هذه الأرقام القصيرة من معلومات وتفاصيل.
- ما شاء الله تبارك الله .. فكرة رائعة .. لك بركة العمر يا عم (نصيب).

ودعني العم (نصيب)، ومضى إلى بيته يخترق الأزقة الضيقة بهدوء تام، يتكئ على عصاه، والتي في طرفها الأعلى رأس أفعى مخيفة، فتحت فمها،

وفي نهايتها الأخرى قطعة حديد صدئة مدببة، يسحب رجله اليسرى في مشيته.

استأذنت من زوجتي (سحر)، وذهبتُ لصاحب الدكان (زيد)؛ لأجمع منه بعض المعلومات عن وضع (نصيب) المالي والاجتماعي، بعد أن عرفّته بنفسي؛ فالعم (نصيب) دخل قلبي فأشفقت عليه .. لا أدري ما الذي دفعني لمثل هذا التصرف، ففاجأني اليماني (زيد) بأخبار حزينة جدًّا عن العم (نصيب)، الذي له ثلاثة أولاد، لا يعرفون أمهم وأباهم بعد أن منَّ الله عليهم بالتخرج من الجامعة .. الكبير منهم اسمه (مبارك)، ظن والده فيه البركة؛ ففي يوم ولادته حصل العم (نصيب) على زيادة استثنائية في مرتبه .. يعمل (مبارك) حاليًا برتبة نقيب بوزارة الداخلية، أما الثاني منهم فاسمه (سعيد)، ولدته أمه في يوم شتاء ماطر، فتوقع والده أنه سيحمل لهم الخير والبركة بنزول الماء من السماء، يعمل (سعيد) بإحدى السفارات بأوربا الشرقية، والصغير منهم سماه والده (عيدًا)؛ فقد ولدته أمه في صباح يوم عيد الفطر .. عمل بعد تخرجه بأحد المصارف بمدينة أخرى.

- لحظة .. لحظة .. يا (زيد) هذا الاسم ليس غريبًا علي أبدًا (مبارك بن نصيب) .. نعم أذكره، كان معنا في كلية الهندسة سنة كاملة، وفي السنة الدراسية الثانية حصل على قبول في كلية

الشرطة، فسحب ملفه من الجامعة .. كنا نتفاءل باسمه كثيرًا، وكنا نُناديه: تارة بالمبارك وتارة أخرى أبا النصيب، لكن كيف هجروا أهلهم؟ ما السبب يا (زيد)؟

- لا أعلم بالضبط، وأهل الحي فيما بينهم يتناقلون عدة روايات عن سبب هجرهم لأهلهم ومجتمعهم الذي عاشوا فيه لسنوات طويلة، فبعضهم قال على ذمة الراوي المجهول الهوية: بسبب تاريخ فقرهم وحالتهم المادية التعيسة التي عاشوا فيها بهذا الحي الشعبي، الذي أصبح لا يتناسب مع مكانة وضعهم الاجتماعي الحالي، وقال آخرون: بسبب خجلهم من تاريخ أبيهم الوظيفي، بأنه كان (فراشًا) قبل تقاعده، وقول ثالث شائع كثيرًا، وأظنه هو القول الراجح فيما يبدو عند أهل الحي: (أن هؤلاء الأبناء الثلاثة متفقون فيما بينهم على طمس هوية جذورهم الاجتماعية، وبناء هوية جديدة مشرقة لهم، تتناسب مع واقعهم الاجتماعي الحالي، ومكانتهم الوظيفية المرموقة، التي تعتمد على بناء قوة المصاهرات من خارج البيئة التي ينتمون لها، بدليل أن الابن الكبير (مبارك) تزوج من فتاة مصرية الجنسية، ذات بشرة بيضاء، بينما تزوج (سعيد) بفتاة شقراء من ذوات العيون الملونة من أوربا الشرقية، أما أخوهما الصغير (عيد) فقد تزوج بفتاة مغربية).

- ألا يعلمون بأن الفخر والاعتزاز لهم، بأن والدهم (نصيبًا) هو من رباهم، وشقي وتعب على تعليمهم وتخرجهم؟ وأخذ بأيديهم نحو مضمار العلم والمعرفة، والآن جاء دورهم برد جزء من هذا الجميل له، بدلًا من هروبهم من تحمل المسؤولية لأيٍ عذر اجتماعي كان، هل تعرف عنوان أو هاتف أحدهم يا (زيد)؟
- لا أعلم .. منذ تخرجهم لم أرَ أحدًا منهم يأتي إلى الحي غير (مبارك)، ثم انقطع هو الآخر دون معرفة السبب.
- يا (زيد) سجل رقم هاتفي الخلوي عندك، وفي نهاية كل شهر ذكرني لأدفع لك مصاريف العم (نصيب) الشهرية، بشرط أن لا يزيد حسابه عن الثلاثمائة ريال، ولا تُخبره بأني من دفع الحساب الشهري عنه، بالله عليك قل له: فاعل خير دفع عنك الحساب لهذا الشهر.
- إن شاء الله، وجزاك الله خيرًا يا عم (عبد المجيد)، لكن في الحقيقة لدينا في هذا الحي من هو أشدُ فقرًا من العم (نصيب) .. هم بحاجة لدعم ومعونة كذلك، فلعل أحدهم أن يُصيبه مثل رزق (نصيب).
- من هم؟
- هُم كثير في هذا الحي، وصعبٌ عليَّ حصر مثل هؤلاء المتعففين بمثل هذه العُجالة، فالفقر في هذا الحي يتناسل بين الناس

بصورةٍ غير طبيعيّةٍ؛ لأنه يعيش في بيئةٍ اجتماعية راكدةٍ ومستقرةٍ، وكأنه عُهدة مستديمة، جيلٌ يُورّثها للجيل الذي يأتي بعده بكل أمانةٍ.

- أجل يا (زيد) .. في نهاية كل شهر سنختار أحد هؤلاء الفقراء، ونسدد له قيمة مشترياته مع العم (نصيب) .. في نهاية الشهر الهجري سنعمل أنا معك قرعة بين هؤلاء المحتاجين، وأنت عليك تجهيز الأسماء التي تستحق المساعدة والمعونة.
- بمشيئة الله يا عم (عبد المجيد) وفي حفظ الله ورعايته.

***

(02)

احتارت (صلحانة) زوجة العم (نصيب) في أبنائها الثلاثة؛ بسبب قطيعتهم، بين الدعاء عليهم والدعاء لهم؛ بسبب لوعة الفراق، وشوق قلبها لرؤية وجوههم .. فيدٌ تُريد أن ترتفع عاليًا مناجيةً الباري عز وجل؛ لتدعو لهم بالهداية والصلاح والصحة، يداعبها أمل ورجاء بالله لا يتزعزع، بأن يقر عينها برؤيتهم قريبًا قبل موتها، واليدُ الأخرى أضناها السهر وأتعبها طول الانتظار، تُريد أن تدعو عليهم بالهلاك والبوار في الدنيا والآخرة، أما والدهم العم (نصيب)، فأقر أنّ ما يراه من جفاء وقطيعة من أبنائه الثلاثة، ما هو إلا قدرٌ ونصيبٌ وابتلاء من رب العالمين في هذه الحياة الفانية، وما عليه إلّا الصبر والاحتساب، ففضل الانزواء بعتمة الصمت، والحياد بين هذين الخيارين، وشق عليه الأمر بينهما، وكتم حزنه وغيظه، ولجأ لتلاوة سورة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، (التي يحفظها غيبًا) كلما أضناه الفراق، وعاش أغلب أوقاته في ذاكرة أيام طفولته وشبابه مع والده (جمعة) قبل موته، يُفتشُ بين صفحات تلك

الذكريات عن علاقته مع أبيه، هل كان عاقًّا لوالديه في يوم من الأيام؟ فربما هذا الذي يُشاهده من عقوق أبنائه لهما ما هو إلّا دين، وجاء اليوم الذي يُرد عليه هذا الدين؛ لتصفية حسابه في الدنيا قبل الآخرة.

الابن الأكبر (مبارك) لم يكتفِ بإنكاره لوالده وأمه؛ بل بالغ في إنكار كل تبعاته الماضية، وكل أجندة موروثاته، وكان بوده أن يُغيّر اسمه، فأنكر إخوته والبيئة التي نشأ فيها وتربى، وبدأ يتخبط في نسبه بين القُرى الكثيرة، وبين المدن الصغيرة منها والكبيرة التي يُمني النفس بأن ينتسب لها .. حاول طمس معالم هويته الاجتماعية القديمة، وإزالتها من الوجود، رغم علمه اليقين بأنه يعيش في مجتمع انتمائي قحٌ حتى النخاع، يعرف خارطة نسبه جيدًا، ويعرف كيف يستخرج صك انتمائه من بين حُفر القبور.

وبعد مرور ساعة من زيارة الخادمة (بِلشا) لخالتها أعدتها لبيتنا، وسرعان ما نقلت (سحر) لأمها (صفيّة) قصة ما حدث معنا في الحي الشعبي، (قص ولزق) بالتفصيل .. كالعادة في مثل كل يوم، وأخبرتها عن قراري بمساعدة بعض الفقراء في هذا الحي، الذي يعيش أهله على حافة الفقر، بعد أن اقتنعت (سحر) بصواب رأيي، وتحمست له، وقالت:

- إنه من الخطأ أن نُرسل زكاتنا وصدقاتنا لخارج البلاد؛ بحثًا عن فقراء ومساكين مستحقين لها من إخواننا المسلمين، بينما نحن

لدينا في داخل بلادنا من هو مستحق أكثر منهم، هم أشد فقرًا منهم، يعيشون في بلدنا الغني جدًّا بخيراته وثرواته.

وسرعان ما نقلتْ الخالة (صفيّة) أخبار زيارتي مع ابنتها (سحر) للحي الشعبي لزوجها (عامر)، وأخبرته عن تفاصيل دعمي لبعض الأسر المحتاجة في الحي، الذي سرعان ما تفاعل مع الفكرة وتبناها، واعتبرها مشروعًا إنسانيًّا، من الضروري المساهمة فيه ودعمه، وكعادته دائمًا يعتبر أي عمل يقوم به مشروعًا، فطلب مني مشاركته بسهمين لفقراء أهل الحي، فحين أذهب لدكان (زيد) عليَّ أن أختار له اثنين من فقراء الحي في كل شهر، فيقوم العم (عامر) بدفع قيمة حسابهما، شريطة أن لا يتجاوز حساب كل منهما الثلاثمائة ريال، وبهذا التكليف أصبحت مهمتي ذات مسؤولية كبيرة، والعم (عامر) لم يكتفِ عند هذا الحد بدعمه لمشروع الصدقة الذي تبناه؛ بل نقل فكرة مساعدة هؤلاء الفقراء المحتاجين لمجالسه الخاصة، الذين روادها من الأغنياء والأثرياء، وأصحاب العقارات والشركات في المدينة، فأخبروه بضرورة دعم مثل هؤلاء، وطلبوا منه تكليفي بدفع نفقات عشرة بيوت شهريًّا بنفس الشروط، على أن يكونوا من فقراء نفس الحي، ومن المستحقين للصدقة والزكاة، وأن لا يزيد حساب المستفيد منهم عن الثلاثمائة ريال، وهكذا يسوق الله سبحانه وتعالى الخير والأجر للناس، عندما تكون النوايا صادقة وخالصة لوجهه الكريم.

تُعتبر (سحر) البنت البكر لخالتي (صفيّة)، وجاء بعدها ثلاثة أبناء، لكن أصحاب العم (عامر) ومعارفه يُصرون على مناداته: أبا (سحر)، بدلًا من أبي (وليد)، الذي هو اسم ابنه الكبير، والعم أبو (سحر) يقبلها منهم بصدر رحب، ولا يغضب، ولا يستدرك عليهم هذه التسمية التي اعتاد سماعها من أصحابه، عكس ما نشاهده اليوم في المجتمع، فبعض الآباء عندما يأتي له ابن ينسف اسم البنت، ويرفض مناداته بكنيتها، بل يُخفي اسمها عن مجالس الرجال، وأبو (وليد) لا يقر أبدًا بوأد أسماء المحارم في المجالس الخاصة والعامة، ولا يرى سببًا مقنعًا بعدم ذكر أسماء النساء والبنات في المحافل الاجتماعية كالأعراس، كما يفعل بعض الجُهلاء من العامة؛ باعتباره عيبًا ذكر أسماء محارمهم.

تُصرُّ (سحر) على أن تُعامل الخادمة الآسيوية (ليدا) معاملة خاصة، تختلف كليًّا عن معاملتها للخادمة الأفريقية (بِلشا)، معاملة تتناسب مع ثقافتها، حسب ما تظن وترى؛ فكانت ميزة معرفتها للغة الإنكليزية عونًا ودافعًا لمثل هذا الميل والمفاضلة، فسحر تثق في رعاية (ليدا) لابنها (عموري)، كما تحب هي وأهلها تسميته، فزوجتي (سحر) طلبت من جميع أفراد عائلتها مناداته باسم (عموري)، حبًّا واحترامًا لأبيها، بينما أخوها الكبير (وليد) عندما جاء له مولود سماه (خالدًا)، فكان يُردد بتفاخر أمام أهله وأصحابه بأن ابنه: خالد بن وليد.

ومن حيث تعلم (سحر) أو لا تعلم، فقد أقصت بتصرفاتها (بِلشا) من دائرة الحضور والاهتمام، ونفتها لدائرة التجاهل والإهمال، وأدخلتها بعنف في أجواء الحقد والكراهية والحسد والغيرة والعدوانية .. لقد أشعلت في قلبها جذوة نار الانتقام دون قصدٍ منها، وكان فرق الثقافة بين الخادمتين له الدور الكبير والفعال في خلق مشكلة الإقصاء والإبعاد، واستفحال المشاكل بينهما فيما بعد.

لقد أدت الرؤية المريضة القاصرة للمستوى الثقافي الذي تشاهده (سحر)، إلى تباين جلي وواضح بين مكانة الخادمتين في معاملتها لهما، فلقد قامت (سحر) بترجمة هذه الرؤية في السلوك والتصرف والاهتمام؛ بل تجاوزت حدود التعبير عن مشاعرها؛ فقد أكرمت الخادمة (ليدا) بزيادة استثنائية في مرتبها الشهري، بعلم الخادمة (بِلشا)؛ مما أجج في قلب (بِلشا) نار الحقد والكراهية من جديد على الاثنتين معًا .. حقدٌ بدأ ينمو ويتكاثر دبيبه في نفسها بسرعة، يومًا بعد يوم، وبدأ يتضخم حجمه بدرجة كبيرة، وكأنه ورمٌ خبيث لم ينتبه ضحيته لشدة خطورته، وكان لا بد من اجتثاثه من جذوره مبكرًا وبسرعة .. وفي ظل غياب المصالحة الذاتية مع النفس المقهورة منذ أيام الطفولة، تزداد (بِلشا) في حب الانتقام من (سحر)، خصوصًا بعدما رفضت إعطاءها قرضًا بقيمة راتب شهرين مقدمًا؛ من أجل دعم مشروع زواج أختها الصُغرى

لأبيها، فلقد قارنتْ (بِلشا) هذا الرفض القاسي على قلبها مع موافقتها اللينة على منح (ليدا) قبل شهرين ما قيمة ثلاثة رواتب؛ لمساعدتها على ترميم منزلهم المتصدع بسبب الإعصار الأخير الذي ضرب منطقتهم الساحلية.

لقد قررتْ (بِلشا) الانتقام لنفسها المهزومة من تصرفات (سحر) بطريقتها الخاصة التي تتناسب مع الإمكانات المتاحة لها، في ظل حالتها النفسية المريضة، وكأني كنتُ أقرأ أفكارها في الانتقام مبكرًا، وتوقعتُ مثل هذا قبل عزمها على تنفيذه، ولقد كنتُ في نفسي أجد لها كل العذر والتبرير في بعض الأحيان فيما ستفعل؛ بسبب سوء معاملة (سحر) لها، ولشدة قسوتها غير المبررة عليها، وقد كنتُ بين فترة وأخرى أُحذر (سحر) من قوة ردة فعل (بِلشا)، وعليها أن تنتبه جيدًا لها؛ بسبب الظلم الواقع عليها، لكن لم أكن أتصور أبدًا بأن انتقام (بِلشا) سيكون بمثل هذه الصورة الوحشية البشعة، ومع كل الأسف لم أتمكن من إدارة هذه الأزمة جيدًا قبل تفاقمها، ولم أجد الحل المناسب لها قبل قرار (بِلشا) لمرحلة تنفيذ انتقامها بوقت كافٍ؛ بسبب رفض (سحر) لي بالتدخل في شؤون الخدم والسائق بتاتًا، لا من بعيد ولا من قريب، كانت تُردد أمامي دائمًا (بأن إدارة أمور المنزل وشؤون الخدم كلها من اختصاص الزوجة ومسؤوليتها المباشرة، وعلى الزوج عدم التدخل بمثل هذه الشؤون،

وللسفينة يجب أن يكون ربان واحد)، ولا أعلم من أين أتت (سحر) بمثل هذه القداسة للنساء، ولا أعلم من أصدر لهنّ مثل هذه الفتوى في أمور إدارة المنزل وشؤونه.

زادت جرعات الحقد والكراهية في قلب (بِلشا) عندما أبعدتها (سحر) عن الغرفة المشتركة مع (ليدا) في الملحق العلوي من منزلنا، وطلبت منها تنظيف غرفة صغيرة مهجورة، مركونة في باحة (الفيلا) الجنوبية، ملاصقة لجدار (الملحق) الخارجي، وجعلها سكنًا لها .. تمت هذه الإجراءات بسبب شكوى مقدمة من (ليدا)، التي لا تستطيع النوم في غرفة واحدة مع (بِلشا)؛ فكثيرًا ما تستيقظ (بِلشا) في أثناء الليل، وتمشي عدة خطوات داخل الغرفة وهي نائمة، ولا تتكلم، وفي بعض الأحيان تتكلم مع نفسها بلغة غريبة، ثمّ تعود لسرير نومها وكأن شيئًا لم يحدث، وأحيانًا تسمعُ (بِلشا) تصرخُ بأصوات غريبة مفزعة في أثناء نومها، وتُنادي على أسماء لا تعرفها، وكأنها تستنجد بها. وبعد انتقال (بِلشا) للغرفة الخارجية في باحة المنزل لم تسلم (ليدا) من ذكريات ما كانت تقوم به (بِلشا) .. بدأت (ليدا) تُشاهد أشباحًا لها تصول وتجول في غرفتها أثناء الليل .. تستيقظ من نومها في منتصف الليل على صوت بكاء (عموري)؛ رغم يقينها أنه نائم في غرفة أمه، وأحيانًا تسمع صوت زوجتي تُنادي عليها: (ليدا)، فتخرج من الغرفة ولا تجد أحدًا خلف

الباب، رغم أنها متأكدة من قفل باب الغرفة من الداخل؛ مما اضطرها أن تترك الإنارة داخل الغرفة مضاءة أثناء فترة الليل.

ذهبتُ للمكتب الذي استقدم الخادمة (بِلشا) لنا، بعد أن أخبرتني زوجتي عن قصة معاناة الخادمة (ليدا) في الليل، وعن رؤيتها لصور الأشباح التي تتراقص في غرفتها كل ليلة .. شرحتُ لإدارة مكتب الاستقدام الحالة النفسية التي تُعاني منها (بِلشا)، دون ذكر لاسم الخادمة (ليدا)، رغم أني غير متأكد أيتهما المريضة فعلًا، هل (ليدا) أم (بِلشا)؟ خصوصًا بعد أن تم عزلهما عن بعض؛ كأن أحدهما مصاب بمرض معدٍ، كل واحدةٍ منهما بغرفة خاصة، وبعد تحري المكتب بسؤال وكيلهم في بلدها، وبعد فترة أسبوعين من الانتظار عرفتُ منهم: أن (بِلشا) تعرضت لحياة قاسية في طفولتها .. تُوفيت أمها وهي طفلة صغيرة؛ فَكَفَلتها زوجة أبيها السيّئة الخُلق، التي عاملتها بقسوة في ظل غياب والدها لساعات طويلة عن البيت، فبنتْ منها شخصية معقدة جدًّا، تنتابها الأمراض النفسية، فطرق التعذيب التي شهدتها (بِلشا) من زوجة أبيها ماثلة أمام عينها، جعلت منها إنسانة لا تعرف غير الحقد والكراهية والانتقام، وأكثر ما يُتعب الإنسان نفسيًّا وجسديًّا، عندما تتداعى في ساعات يومه كومة من الذكريات المؤلمة، وكأنها طفلٌ صغيرٌ مذعورٌ ألمَّ به خوفٌ؛ يبحثُ عن حضن أمه، ثمّ يتقيأ الألم القديم

سريعًا من أحشاء النوازل الجديدة .. حزنٌ ثقيلٌ يُجرجرُ ثوبه بتكاسل من زمن (الهم والقهر)، وجرحٌ مُثابرٌ جدًّا يتفتق في غرس ألمه من جديد .. مشاعر غرستها وغذتها سنوات الاضطهاد؛ من فقرٍ وجوعٍ وحرمان .. نارٌ حامية تغلي وتضطرم بالقلوب، وتدفع بالإنسان بقوةٍ عظيمة لا يمكن مقاومتها أو الوقوف بوجهها .. في أحد الأيام غضبت منها زوجة أبيها الظالمة، فضربتها ضربًا مبرحًا بعصا طويلة، ولم تكتفِ زوجة أبيها بهذا العقاب القاسي؛ بل تجاوزته وأتت بقطعة جمرة تشع حرارة، أخرجتها من التنور، وكوت بها ظاهر كفها الأيمن؛ عقابًا لإهمالها وتقصيرها في عمل البيت، ولا زال أثر ذلك الكي باقٍ كشاهد عيان على جريمة زوجة أبيها ..

عندما سمعتُ بهذه الأخبار التعيسة عن (بِلشا) من المكتب، قررتُ ترحيلها فورًا بعد أن قضت معنا في العمل عامًا ونصف .. قررتُ الاستغناء عن خدماتها مع مكافأتها براتب شهر زيادة على مرتبها الشهري؛ من باب العطف عليها .. طلبتْ مني زوجتي (سحر) كتمان سر ترحيلها وإنهاء خدماتها، وعدم إخبارها عن موعد سفرها إلا في صباح يوم الرحلة، مع ضرورة كتمان هذا الخبر عن الخادمة الأخرى (ليدا)؛ خوفًا من أن تفشي سر ترحليها، فتهرب (بِلشا)، فنقع في مشكلة البحث عنها، والخوف منها وعليها، وسوف نتصرف كعادة بعض المعارف الذين لا يخبرون خدمهم عن وقت ترحيلهم المفاجئ إلَّا في صباح يوم

الرحلة .. لم يفكر هؤلاء أبدًا بمشاعر هذه المرأة المرمية في مطار بلدها دون وجود مُستقبِل لها في صالة المطار؛ من أجل حمايتها وحراستها .. لم يفكروا فيها كيف ستتعامل مع كل شيء غريب حولها، والأهم من ذلك كيف ستصل مثل هذه الخادمة (الأمية) لقريتها النائية البعيدة، التي قَدِمَتْ منها بمرافقة فريق من أهلها للمطار، جاءوا عبر عدة وسائل نقل؟ لم يفكر هؤلاء في عظمة الأمانة التي استقبلوها بداية.

ولكن الأقدار تتربص بنا دائمًا، وتقف لنا بالمرصاد .. تمنعنا بهدوء من تحقيق أهدافٍ مرسومةٍ وأمنيات غاليات، كأن بيننا وبينها موعدًا قد نسيناه؛ من شدة صخب الحياة، لم نكن نشعر بقدومه نحونا، لكنه لا محالة قادمٌ نحونا بأمر إلهي؛ لتنفيذ مهمته بجدارةٍ .. كان بيننا وبين وقوع هذا القدر المكتوب علينا (ثمانية وأربعين) ساعة فقط .. يومان يفصلان عن موعد ترحيل خادمتنا (بِلشا)؛ لنضعها في صالة المغادرة بأرض المطار، لتنقلها الطائرة لبلدها بأمان.

بينما كانت (سحر) تشرح أحد دروس مادة الرياضيات للطالبات في الفصل، سمعتْ صوت هزاز هاتفها النقال، الموضوع في الجيب الخارجي لحقيبتها اليدوية السوداء اللون، ذات الماركة العالمية، الممنوع دخوله في الفصول، لكن (سحر) مرفوع عنها القلم والحبر والدفتر، فسحر بالنسبة للإدارة المدرسية تعتبر بنت صاحب المدارس كلها، الذي بيده

الجزاء والعقاب والمنع والرفض، فتسحب (سحر) جهاز هاتفها من جيب حقيبتها، وتنظر في شاشته، فتعرف أن الخادمة (ليدا) هي المتصلة بها، ولم يسبق لها أن اتصلت بها في أثناء وجودها بالمدرسة غير مرتين نادرتين، لا تزالان قابعتان في أرض ذاكرتها الخصبة؛ ففي المرة الأولى اتصلت عليها عندما طرق باب بيتنا عامل شركة الهاتف (الفلبيني)؛ ليتأكد من أن الأسلاك الداخلية بالمنزل سليمة، فقد تواصلت (سحر) مع شركة الهاتف وأخبرتهم عن عطل في جهاز (مودم) هاتف المنزل، فرفضت (سحر) أن تفتح (ليدا) الباب له، وطلبت منه أن يأتي في وقت آخر، وفي المرة الثانية طرق باب بيتنا رجل (باكستاني) يدعي بأنه يحمل إرسالية شحنة (طرد بريدي)، عبارة عن ملابس، قامت (سحر) بشرائها عن طريق الإنترنت، ففتحت (ليدا) له الباب لتستلم الطرد البريدي منه بناء على موافقة زوجتي؛ ولهذا فإن (سحر) استغربت من اتصال (ليدا) عليها، وشغلها الاتصال عن ما تقوم به من شرح للدرس، لكن الخادمة (ليدا) لم تنتظر الرد على اتصالها، فعاودت الاتصال مرة ثانية وثالثة، فاعتذرت (سحر) من طالبات الفصل؛ وهنّ يتهامسن فيما بينهن، وبعضهنّ يتغامزن؛ لقد وجدن مادة دسمة يتفكّهن فيها، وخرجتْ من الفصل للممر الطويل الممتد بين الفصول، الممتلئة جدرانه

عن بكرة أبيها بكتابات ورسومات ذكريات الطالبات، واتصلت على الخادمة (ليدا)؛ لتعرف سبب إصرارها على الاتصال:

- نعم (ليدا)، لماذا لم تنتظري حتى أنهي الدرس؟
- مدام لا أعلم أين (عموري) .. بحثتُ عنه، ولم أجده.
- ابحثي عنه في كل مكان، فأين يختفي طفل عمره سنة واحدة، ربما نزل (القبو) أو انزوى في داخل المصعد، أو دخل غرفتنا واختبأ تحت السرير، بعد أن خرج (عبد المجيد) منها ونسي قفل باب الغرفة كعادته.
- غرفتكما مقفلة مدام، رأيت السيد (عبد المجيد) يقفلها لحظة خروجه، ثمّ جلس فترة يداعب (عموري) قبل خروجه.
- (ليدا) .. اطلبي من (بِلشا) مساعدتك في البحث عنه.
- لم أجد (بِلشا) كذلك مدام.
- ماذا؟! لم تجدي (عموري) ولا (بِلشا)!! كذلك هي الأخرى اختفت!!
- نعم يا مدام.
- أنا قادمة الآن، هل السائق في غرفته؟

- لا أظن مدام .. فالسيارة غير موجودة كذلك.

بينما كنتُ مشغولًا في اجتماع طارئ؛ لمناقشة تدهور الأوضاع المالية في أحد فروع الشركة، الذي تعرض مؤخرًا لحريق طال أجزاء كثيرة من مبناه في أثناء الليل .. لقد قدرت شركة التأمين بأن الحادث كان بسبب إهمال في التمديدات والتوصيلات الكهربائية المستخدمة، ولن تتحمل شركة التأمين مسؤولية الحريق، ولا يحق لشركتنا المطالبة بالتعويض بناءً على بنود الاتفاق المبرمة بيننا وبينهم، وهذا هو بالضبط واقع شركات التأمين؛ فعند حلول تسديد القسط السنوي، تسمع منهم كل مغريات الوعود والأمنيات الكثيرة في تنفيذ سرعة التعويض، وفي وقت وقوع الحادث لن تجد من يستمع لك؛ بل تجد كل التبريرات منهم لكسب قضية إعفائهم عن دفع التعويضات، فرأيتُ شاشة هاتفي الخلوي الموضوع أمامي فوق طاولة الاجتماعات - الذي كان على وضع الصامت - يُومض عدة مرات باسم (سحر)، الذي خزنتُ رقمها في ذاكرته باسم (السحرُ في سَحَرْ)، فقطعت مواصلة الاتصال مباشرة؛ كي أشعرها بأني استقبلت مكالمتها، وسوف أتصل بها لاحقًا كالعادة؛ لكنها تتصل مرة ثانية، وتُصر على مواصلة الاتصال بي للمرة الثالثة، فأغلقت جهاز الهاتف، وكل ظني: (أنها تُريد أن تنتشلني من ضجيج زحمة العمل، وتدعوني لتناول وجبة الغداء في أحد المطاعم الشهيرة كعادتها في مثل

هذا الوقت)، وعندما انتهيت من الاجتماع فتحت جهاز هاتفي المغلق، فوصلتني عدة رسائل كإشعار عن مكالمات فائتة من رقم هاتف (سحر)، فاتصلتُ بها على الفور، وإذ بي أسمع بكاءها وصراخها غير المعهود بصوتٍ عالٍ جدًّا، وبدون مقدمات:

- الخادمة (بِلشا) خطفتْ ولدي (عامرًا) وهربتْ.
- كيف؟ وأين كانت (ليدا)؟
- لا أعلم، واتصلتُ على السائق كذلك عدة مراتب، فوجدتُ هاتفه مغلقًا مثل هاتفك، والآن أنا في الطريق للبيت في سيارة أجرة من (شركة خاصة) .. أسرع يا (عبد المجيد) للبيت رجاء.
- طيب .. نلتقي في البيت إن شاء الله.

تصل (سحر) قبلي بفترة قصيرة للمنزل، منهارة الأعصاب تمامًا، تتهور بتصرفات بشعة وغير لائقة مع (ليدا)، فتضربها بحقيبتها اليدوية الثقيلة من كل جهة، ولا تجد (ليدا) غير يديها لغطاء وجهها وحمايته من شدة الضربات الموجعة الموجهة لها، ولم تكتفِ (سحر) بهذا؛ بل رفعت أحد الكراسي القريبة منها، وحاولت أن تضربها به .. عند ذلك ثارت أعصاب (ليدا)، فسحبته منها بقوةٍ، وهي تصرخ:

- لا أعلم أين اختفى (عموري) .. كان يلعب في صالة المنزل بإحدى ألعابه .. ذهبتُ لدورة المياه، وعندما عدتُ للصالة لم

أجده، فتوقعت أنه ذهب لغرفته، وبعد نصف ساعة بحثتُ عنه فلم أجده، فصرختُ بصوتٍ مدوٍّ على (بِلشا)؛ كي تساعدني في البحث عن (عموري)، فلم أجدها كذلك، هذا كل ما حدث مدام.

فتركتْ زوجتي (ليدا) في الأسفل، وذهبتْ مسرعة تبحث عن (عامر) في الدور الأول، تصرخ بصوت عالٍ باسمه؛ لعله يرد عليها، ولم تُفكر في حينها: كيف يرد عليها طفل عمره سنة واحدة؟ فأين ذهب عقلها في وقتها؟ تصرخ كالمجنونة، باسم (عامر) و(بِلشا)، بالتناوب بينهما.

عندما دخلتُ منزلنا من باب الصالة الرئيسية شاهدتُ الدم يسيل من وجه الخادمة (ليدا)، وزوجتي تنزل الدرج مسرعة، بدت لي ثائرة الأعصاب جدًّا، تُسرف إسرافًا غريبًا في إظهار حزنها وثورتها وانفعالها، تصرخ وتلطم وجهها، وتُحاول أن تُمزق ثيابها، وتشد من شعرها حتى ملأت راحتيها بخصلات منه، وتنظر نظرات غامضة للخادمة (ليدا)، التي سرعان ما طأطأت رأسها؛ هروبًا من نظراتها، وخلال هذا المأتم المأساوي المروّع، ماجت الأرضُ بها، في دوار مفاجئ، جعل قدميها تتخبطان بعتبات الدرج الرخامية الملساء، وكأن الأرض اهتزت من تحت قدميها، فتدحرجتْ منهارةً عندما رأتني .. في تلك اللحظة ماتت كل أنفاس الصخب، وهدأت كل الضوضاء التي كانت تعج في أرجاء (الفيلا) بصرخات (سحر)، فرفعتها من على الأرض، وأجلستُها على (الأريكة)

الحمراء الطويلة، والأنفاس في صدرها تتقافز كأنها عصافير تُريد الفِرار من قفص سجانها .. كان وجهها شاحبًا بعض الشيء، لكنه مفعم بحرارة الثورة التي لم تهدأ بعدُ، بدا لي وجهها غريبًا جدًّا، كأني لأول مرة أشاهده منذ سنوات .. عكفتُ أتفرس ملامحها جيدًا، في وقت غير مناسبٍ أبدًا .. شعرتُ بوقتها بأني اكتشفتُ أن لزوجتي (سحر) ملامح (أنثوية) جميلة، لم أنتبه لها من قبل، فغمرتني تجاهها لحظات من المشاعر الإنسانية الراقية، فيها شيء من الرقة والعطف والحنان، جرفتْ كل ما في قلبي من ترسبات سيئة عنها؛ بسبب شدة قسوتها مع الآخرين، وسوء تعاملها مع الخدم .. كانت مشاعر سلبية متراكمة منذ الأيام الأولى لزواجنا .. لقد بدت لي هذه المشاعر الجديدة كأنها سيولٌ جارفةٌ، تُريد أن تغسل الأرض من درن سوء أخلاق بعض البشر، فقلتُ لها بتوسلٍ:

- قولي يا (سحر): (لا حول ولا قوة إلا بالله، قولي: حسبنا الله ونعم الوكيل). ولا أعلم كيف نزل على قلبي هذا الهدوء والاطمئنان والسكينة، فردت علي بأعصاب متوترة وثائرة:
- أنا أبحث عن (عامر)، أين أجد ابني؟ روحي وحياتي، فلذة كبدي، أليس (هو) ابني وابنك، هذا الذي أبحث عنه الآن؟ بالتأكيد أن (عامرًا) ابنك، وليس قطة هاربة أو كلبًا شاردًا، فلماذا تأخذ المسألة بمثل هذا البرود وعدم الاهتمام؟!

فُوجئت بسؤال (سحر)، فبادلتها النظر لحظات، وأنا في حيرة من كيفية الرد على هجومها السافر لي بمثل هذا الاتهام؛ فسؤالها هز كل أركان مشاعري المختبئة، وسارع بانتشالي من غفلة التعبير عنها، وأعادني لواقع حادثة اختفاء (عامر) من جديد، وكأنها حدثت توًّا، فتصنّعتُ الحزن تصنّعًا، وأنا غير راغب فيه؛ كي أمنح (سحر) فرصة جديدة لقراءة مشاعري، ولأُعطي نفسي فرصة التعبير عن ما يختلج في داخلي أمام هذا المصاب العظيم .. لقد كنتُ أقسو على نفسي كثيرًا .. كنتُ أتحمل الألم وحدي، وأخبئ مشاعر أبوتي خلف رداء قوة التماسك النفسي؛ من أجل متابعة تداعيات الحدث، مبرهنًا بذلك تظاهري بالصلابة والقوة والجلادة، بينما كان جوف قلبي مترعًا بالعواطف الجيّاشة، ومهيَّأً للانفجار .. كنتُ أقاوم بكل الوسائل المتاحة عملية الانهيار النفسي، التي ظهرت ملامحها في شدة ارتفاع صوتي، وتلوّن وجهي مع كل من يتحدث معي عن حادثة اختفاء ابني (عامر).

***

(03)

العم (نصيب) يظن في نفسه أنه رجل مبارك أينما حل وذهب، استلهم مثل هذه المشاعر من مشاهدته للناس الذين حوله؛ من تقديرٍ واحترامٍ له، في مجتمعه الصغير (الضيق الأفق)، فمثله كمثل بعض العظماء الذين لا تغيب أسماؤهم عن ذاكرة شعوبهم، عندما قامت أجهزة إعلامهم المأجورة بصناعة أصنام لهم في نفوس العامة والبسطاء، فراحت هذه الشعوب المغلوبة على أمرها تُصفق ببراءة، وتُروج لهم الحكايات تلو الحكايات، ببطولات وهمية لا صحةً لها، كلها قائمةٌ على أكاذيب ملفقة من هنا ومن هناك .. لقد بنوا حولهم هالة إعلامية ضخمة لا يستحقونها أبدًا؛ لأن بعض الشعوب فعلًا مغفلة لأبعد الحدود، حينما حوّلوا الحمقى والمجانين من الناس إلى أعلام ومشاهير، لقد غلّبوا المصلحة الشخصية الهشة على المصلحة الوطنية السامية.

لكن الفرق بين هؤلاء وبين العم (نصيب)، أنّه يعرف جيدًا بأن تاريخ حياته حافلٌ بسجل من الكرامات الكثيرة التي لا حصر لها، وقعت له

بشهادة من حوله من معارف وأصدقاء وجيران، رغم معرفته الجيدة بواقع حياته البسيطة، بكونه (أميًّا) لا يقرأ ولا يكتب، وهذا هو ما يُكدر خاطره، ويُعكر مزاجه منذ بداية حياته العملية، لكنه يعلم بأنه يتمتع بميزة حفظ سريع لكل شيء يشاهده أو يسمعه .. لديه ذاكرة نظيفة ومرتبة جدًّا، لم تُستهلك في أيام طفولته وشبابه .. ذاكرته حاضرة في الوقت المناسب الذي يستدعيها فيه، فمن الممكن أن ينقل لك خطبة جمعة معينة كاملة، قد سمعها قبل شهر أو أكثر، وينقلها لك من أولها لآخرها دون نقصان، ومن الممكن أن يُخبرك عن محاضرة دينية قد حضرها قبل عدة شهور لو سألته عنها ..

عمل فراشًا في مؤسسة حكومية؛ بسبب عدم مواصلة تعليمه الدراسي .. كانت وظيفته الرئيسية تلبية طلبات مديره .. مهمته في الحقيقة أن يجلس على كُرسيّه الخشبي ذي الذراعين عند باب غرفة المدير؛ لينقل الأوراق الموقعة من قبل سعادة المدير إلى المكاتب الأخرى التابعة له، بناءً على توصياته وتوجيهاته، وأن لا يسمح بدخول أحد للمكتب إلَّا بموافقة سعادة (المدير)، وأول ابن جاء له سماه (مباركًا)؛ لذلك فهو يفتخر بين أقرانه في كل مكان، بأنه (نصيب) وكنيته (أبو مبارك)، فهو جمع بين الصفتين الساميتين في اللغة العربية (النصيب والبركة)، عندما يتحدث مع غيره يستطيع قراءة أفكاره من خلال جلسة واحدة معه، سواء كانت

له معرفة سابقة معه أو لأول مرة يلتقي به، سرعان ما يُكوّن تصورًا تقريبيًّا عن شخصية جليسه، ويضع له تقييمًا مناسبًا لحالته .. سيعرف (نصيب) بسرعة بما يفكر في لحظتها، وبما يدور في رأسه من أفكار .. منحة وهبها الباري (عز وجل) للعم (نصيب) .. كل من حوله في مجتمعه ظنوا أنّها كرامات ربانية، واعتقدوا بأنه رجلٌ رباني وصاحب كرامة، وقليلٌ من معارفه وأقاربه صرحوا بأن (نصيب) تعلم السحر في شبابه، وحرّمه في آخر عمره، وعرف (نصيب) الطريقة التي يتعامل بها بعض الناس مع (الجن)، وتمكن من إخضاعهم لخدمته، كما يزعم بعض المقربين له، وتمكن من معرفة الكثير من الأمور الخافية على عقول بعض البشر..

والمقربون له جدًّا يعرفون بأنّ له سفريات سرية غريبة ومفاجئة، لأماكن مجهولة غير معروفة لأحد، وغير معلنة مسبقًا، كما أنهم سرعان ما يفتقدونه دون سابق إنذار، يغيب عنهم فجأة عدة أيام متتالية، رغم أن جميع من حوله يشهد له بحسن عبادته وصفاء عقيدته الظاهرة والباطنة ..

يمتلك من الخبرات الكثيرة التي اكتسبها في الحياة؛ بحكم عمره الذي تجاوز الستين عامًا، فمنذ نعومة أظفاره عمل في سوق (الحراج)، فتعلم من هذا السوق قراءة أفكار زبائنه سريعًا، يعرف كيف يفكرون؟

حيّر العم (نصيب) كل من حوله من أقارب ومعارف وزملاء عمل وجيران وأصدقاء.

في أحد الأيام كنتُ واقفًا معه قرب دكان (زيد)، أتحدث بأريحيّة عن شقاء الحياة وكثرة همومها، ومثل هذه المأساة التي سمعتها منه لن تغيب عن ذاكرتي أبدًا؛ فالعم (نصيب) كان يُحدثني بحزن وألم شديد يتفطر له القلب عن قطيعة أبنائه الثلاثة لهما، فسألته عن سر هذه القطيعة؟ ومتى بدأت؟ فما كان جواب العم (نصيب) غير عدم معرفته بسببها .. بدأت قطيعة الأبناء أولًا بفتور في الزيارة لهما، ثم تحولت تدريجيًّا إلى قطيعة رسمية، ثم قال: (وهذا كله قسمة ونصيب وابتلاء، وقدرٌ مكتوب علينا رؤيته).

معروفٌ حُب العم (نصيب) للناس بصورة عامة، ومشهورٌ بحُبه الشديد لمساعدة المراجعين، مهما كانت صلة قرابته بهم .. شعاره في الحياة الذي كان دائمًا يُردده قول الباري عز وجل: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت:34] ، وبسبب كثرة تعاونه مع سرب المراجعين، ومحاولة مساعدتهم لتذليل المصاعب في طريقهم، كخدمة إنسانية راقية، قام مديره المباشر في العمل بنقله لإدارة أخرى، مقرها ليس بعيدًا

عن مكان عمله السابق، بعد أن نصحه عدة مرات بعدم التدخل في شؤون عمل غيره من الموظفين، فما كان منه إلا أن قال له:

- الأغنام وحدها هي التي لا شأن لها بما يجري حولها في الحياة ما دامت تُعلف جيدًا، أما أنا فإنسان أتفاعل مع الأجواء التي أعيش فيها.

وبعد مرور يومين من نقله، يحترق مبنى الإدارة التي نُقل منها سابقًا؛ بسبب التماس كهربائي، بينما راح الموظفون يؤكدون فيما بينهم: أن هذا الحريق عقاب من رب العالمين؛ بسبب سوء تصرف المدير بنقل الرجل الطيب المبارك (نصيب)، صاحب الكرامات الكثيرة لإدارة أخرى، لا ذنب له غير مساعدته للمراجعين، بإرشادهم لخط سير معاملتهم؛ من أجل تعقبها وسهولة إنهائها. وفي ثاني يوم بعد وقوع حادث الحريق يأتيه مديره السابق الذي قام بنقله؛ ليعتذر له، ويطلب منه العودة لمكانه السابق، لكن (نصيبًا) يرفض العودة لتلك الإدارة، ويُصر على البقاء في مكانه الجديد الذي ألفه، وتعرّف فيه على أصدقاء جُدد، وعلى مدير جديد لن يتنازل عنه .. بعد هذه الحادثة هابه كل من في إدارته الجديدة والقديمة، وأصبحت له مكانة في نفوس الموظفين بصورة عامة.

العم (نصيب) لم يتعود على نظام الادخار في حياته، ولم يتعرف على وسائله وطرقه، ولم يفكر بالتوفير في يوم من الأيام .. شعاره في الحياة

(اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب)، ولا يعلم هل هذا حديث نبوي شريف، أم هو قول مأثور عن الصحابة والتابعين والسلف الصالح، أم (مثل) متوارث بين العامة من الناس بحريةٍ دون سند، فأصبح دستورًا لكثير من المسلمين، كل منهم يُعلق عليه تبذيره وفشله في الادخار والتوفير، فعاش (نصيب) حياة القناعة والاكتفاء والكفاف بكل صورها وأشكالها .. ندب حظه كثيرًا أيام تثمين البيوت الشعبية؛ إذ لم يمر الطريق السريع الذي شق قلب الحي بمنزله، وعرف أن الحياة فُرص، وأنها في أغلب الأحيان تكون (حظًّا) و(نصيبًا).

حرص (نصيب) كثيرًا على تربية أبنائه الثلاثة تربية إسلامية صالحة، كانت نقطة خلافه الرئيسية معهم أداء الصلاة في وقتها بالمسجد خصوصًا، وهذا الأمر كان يُؤلمه كثيرًا .. كان يُردد دائمًا قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص:56]، والعم (نصيب) يظن أن أبناءه الثلاثة ينظرون لوالدهم على أنه قطعة تراثية قديمة، قد عفى عليها الزمان، مثله مثل بيوت الطين المتهالكة في الحي القديم الذي يعيش فيه، الآيلة للسقوط والنسيان قريبًا .. يعتقد العم (نصيب) أن كل واحد منهم يظن في قرارة نفسه بأنه لا يليق به الانتساب لأبيه وأمه، ولا إلى الحي الشعبي الذي تربوا فيه وعاشوا طفولتهم بين أزقته، في نظرهم أن

الحي الذي عاشوا فيه موبوء بذكريات مؤلمة تتزاحم عند بوابة الذاكرة، ترتوي من عالم الطفولة .. فكل أهل الحي يعلمون بأن أم (مبارك) كانت تطبخ في بيتها الأكلات الشعبية في المناسبات، لأهالي الحي أو لغيرهم من الأحياء الأخرى المجاورة؛ من أجل زيادة مورد دخلهم، فأصغرهم (عيد) الذي (أتى بالعيد) لنفسه ولأهله ولسمعته؛ بسبب ترويجه لحبوب (الكبتاجون) بداية، منذ أن كان طالبًا في مرحلة الثانوية العامة، وقد أنهى دراسته الجامعية وهو يُزاول هذه المهنة، ولكن بتحفظ شديد جدًّا، فكوّن ثروة مالية، وأصبح لا يُطيق الحياة بين أهله ومجتمعه والحي الذي ولد فيه وترعرع بين أزقته، فهاجر لإحدى المدن المشهورة خارج بلده، ونسي أهله وعالم ذكرياته، وأسس له حياة جديدة .. لكن الجهات الأمنية المختصة في ذلك البلد كانت له بالمرصاد، فتعقبتْ عمله، ونصبوا له كمينًا وقع فيه، وقذفوه في السجن؛ ليعيش سنوات من حياته بين جدرانه الأربعة، أما الابن الأوسط الذي اسمه (سعيد)، فلا يهمه في هذه الحياة غير مظهره وسعادته، أن يكون سعيدًا في كل الأحوال والأوقات.

ومما يتناقله أفراد المجتمع المحيطين بالعم (نصيب) فيما بينهم عن كراماته الكثيرة، أنه في أحد الأيام كان يُريد عبور الشارع للذهاب لعمله في الجهة المقابلة، وكعادته يرصف سيارته (البيك أب) في الجهة

المقابلة للمبنى الذي يعمل فيه، ثمّ يسير عدة خطوات لمشى العبور للجهة المقابلة، وبينما كان العم يسير في المكان المخصص لعبور المشاة بوسط الشارع، جاء أحد الشباب المتهورين الذي يقود سيارته بسرعة، غير مبالٍ بتجاوز إشارة المرور الحمراء، فلما شاهده يعبر الشارع أمام سيارته، حاول بكل جهده أن يختبر مهارة قيادته، ويتجنب صدمه، فانحرف بسيارته عنه قليلًا جهة اليمين، لكنه فقد سيطرته على مقود سيارته؛ بسبب سرعته وشدة خوفه من هول المفاجأة، فضرب الرصيف الأيمن بعنف، ثمّ صدم أحد المارة، فأرداه قتيلًا في حينه، ولم تتوقف سيارته إلَّا ومقدمتها بداخل محل لبيع الساعات، بعد أن حطم واجهة المحل الزجاجية .. لقد شاهد بعض زملائه في العمل ما حدث للعم (نصيب) من كرامة خارقة، فنقلوها لجميع موظفي الإدارة، فأصبحت فيما بعد حكاية شاهدة على كراماته، وبعضُ من حوله من الموظفين زاد في حبكتها، وبالغ في وصفها بعدة روايات، كعادة بعض الرواة الذين يزيدون في كيل حديثهم دون وزن في أمانة النقل، ثمّ بدأ الموظفون بعد ذلك ينسبون للعم (نصيب) من الكرامات الكثيرة بحرية دون أمانة، دون رقابة من حُراس التحري والتحقيق في المجتمع، منها الروايات الصحيحة التي يقبلها العقل والنقل ويصدقها الواقع المشاهد، ومنها الروايات غير الصحيحة وغير المقبولة بتاتًا، لا نصًّا ولا سندًا؛ بل كثيرٌ

منها مكذوبة وملفقة، ولم تحدث له أصلًا، أو تكون قد حدثت وهو لم يشعر بها، وعندما حكوا له عنها وذكّروه بوقت وقوعها، نسبها إلى فضل الله، الذي يُؤتيه من يشاء من عباده، وليست هي كما يظنون أو يعتقدون بأنها كرامات ربانية خاصة به ..

أما عن أخبار كراماته في الحي الذي يُقيم فيه، فحدث ولا حرج؛ فكراماته لا تُعد ولا تُحصى كما سمعتُ من صاحب الدكان (زيد)، فكل جيرانه في الحي يعرفون طيبته ونقاء معدنه وعطائه، وكرمه ومساعدته لأهل الحي، ولا يمكن أن ينسوا يوم طرقت عليهم جارتهم (أم سالم) الباب، بعد أن فشلت في التواصل مع ولدها (سالم)، رغم كثرة اتصالاتها به، تسمع صوت رنين هاتفه، لكنه لا يرد عليها، بينما كانت زوجته تُعاني من شدة آلام الطلق والمخاض، ولا تستطيع أن تصبر أكثر مما صبرت، فما كان من (نصيب) إلَّا أن استأجر لهما سيارة أجرة، فسيارته الخاصة من نوع (بيك أب)، وحياؤه يمنعه من حشرهما بالقرب منه في (قمرة) القيادة، فأخذهما إلى أقرب مستشفى؛ كي تضع وليدها، وعاد قافلًا بسيارة الأجرة لدكان زيد؛ ليكتب له قُصاصة ورقية، يُخبر فيها زوجها سالم عن ما حدث لهما؛ ليضعها عند فتحة مفتاح الباب .. لم يكن يعلم بأن جارهم (سالم) قد شاهد المكالمات الكثيرة الفائتة من زوجته ووالدته، واتصل عليهما، وعرف أن العم (نصيب) هو من تطوع

بفعل هذا العمل الخيري، فطرق عليه الباب ليشكره، فانتشر هذا الخبر في أرجاء الحي مثل انتشار النار في الهشيم، فلم يبقَ منزل في الحي إلَّا وقد علم بهذا الخبر، فنال العم (نصيب) محبة وتقدير أهل الحي، وبالغوا في بركته وكراماته واحترامه، وقصد منزله بعض النسوة؛ يحملن أطفالهنّ على أكتفاهنّ؛ ليقرأ عليهم، وحاملين معهنّ قوارير ماء؛ ليقرأ لهنّ في الماء ما تيسر من رُقية شرعية.

أما أم (مبارك) زوجة العم (نصيب) فلا تغيب عن أي مناسبة اجتماعية من مناسبات الحي السعيدة والحزينة؛ فهي دائمًا وأبدًا تكون في مقدمة المناسبة، لها مكانة مرموقة بين نساء الحي، بالرغم من أنها (أمية) كذلك مثل زوجها، لكنها تعرف حقوق الجار، وتتمسك بمبادئها وفطرتها السليمة، وتظن أنّ هذه الحقوق عبادة مقدسة، لها مكانة راقية في الإسلام، جاءت بها نصوص الدين الحنيف، وحث عليها الرسول الكريم محمد ﷺ، ومن الواجب على المسلمين القيام بها على أتم وجه، فتتواصل مع جميع جاراتها القريبات من سكنها والبعيدات، منهنّ الصغيرات بعمر أبنائها ومنهنّ الكبيرات بعمرها، من ذوات الطابع التُراثي في الملبس والكلام، صرفت جل أوقات حياتها في تربية أبنائها الثلاثة، ودعت الله أن يُبارك لها فيهم ..

اعتادت (صلحانة) أن تحمل حقيبة (الضيافة) - كما يُسميّها جاراتها - ضُحى كل يوم، بداخلها (ترمز) بلونٍ أحمرٍ متناسق جدًّا مع لون الحقيبة .. خصصته لقهوتها اليوميّة ذات الرائحة المميّزة؛ بطعم الهيل والقرنفل، وبداخلها عدد من فناجيلها ذات الطابع التُراثي القديم، وعلبة التمر المعدنية .. تطرق الباب على أحد بيوت الحي، وتستأذن منهم بالدخول، فتؤدي واجب الضيافة والزيارة .. تجلس معهنّ وتُعرّفهنّ بنفسها وموقع بيتها بكل شفافية، وتتعرّف عليهنّ بطريقتها الخاصة، وتسألهنّ عن أي خدمة تقوم بها لهنّ .. ذاع صيت أم (مبارك) في الحي، واشتهرت بينهنّ باسم (زائرة الحي)، وبعض الجارات يحلو لهنّ تسميتها (زائرة الضُحى)، أو صاحبة (القهوة)، أو صاحبة (حقيبة الضيافة) .. كثير من نساء الحي قبلن تصرفها الطيب، الذي يعكس ما في داخل النفس من نية صادقة حسنة، متدفقة من ينابيع الفطرة الإنسانية السليمة، التي شوه معالمها التطور الحضاري التعيس الذي نعيشه، ليحتل مكانها الخوف والتربص من الجار، وشكرنها على ما تقوم به من واجب، وتواصل بين جيران الحي الواحد، وبعض منهنّ أنكر على أم (مبارك) مثل هذه التصرفات غير الحضارية، التي لا تتوافق مع الحريات الشخصية والمدنيّة، واعتبرن تصرفها هذا خرقًا للخصوصيّات الاجتماعية، وتصرفًا شاذًّا وغير مقبول مطلقًا حاليًا، ويُعتبر من

الموروثات القديمة التي لا تتناسب مع العصر الحديث، الذي يتطلب بعض الترتيبات المسبقة للزيارة؛ كالاستئذان المسبق في الهاتف قبل طرق الباب من أجل الزيارة، وكل جاراتها يفتحن لأم (مبارك) الباب عند سماعهنّ صوت طرقاتها المميّزة على أبواب بيوتهنّ، ويعتبرن قبول دخولها لبيوتهنّ في مثل هذه الأوقات تصرفًا نابعًا من باب الآداب العامة للجيران، ومن باب المجاملات الاجتماعية الواجب القيام بها بالحي الواحد، ومثل تصرفهنّ هذا يُعد من خُلق حُسن الجوار .. بعضهنّ يعشن على أعصابهنّ منذ لحظة دخول جارتهنّ (صلحانة) لبيوتهنّ، بالرغم ما تقدم لهنّ من خدمات اجتماعية كثيرة؛ فهي تقوم بشراء بعض حوائجهنّ النسائية الضرورية من سوق الديرة، في أغلب الأحيان لا تذهب وحدها لزيارتهنّ؛ بل تأخذ في طريقها بعض جاراتها القريبات من بيتها، وخصوصًا جارتها العزيزة أم (سليم)، التي تحظى بمكانة خاصة عندها؛ فهي لا تغيب عن مجالسها أبدًا. وبعد أن تُعرفهنّ بنفسها بكل ثقة، تحكي لهنّ عن أخبار مجتمع الحي بالتفصيل، وتترك لهنّ حرية الحديث؛ لتعريفها بأنفسهنّ لمن تشاء منهنّ .. بعض نساء الحي - وبالذات الشابات منهنّ - ظنوا بأن تصرفها هذا فيه تطفل واعتداء على حرياتهنّ الشخصية، واستهجنوا مثل هذه الزيارات جملةً وتفصيلًا.

حاولت أم (مبارك) كثيرًا أن تجمع شمل نساء الحي في مجلسٍ واحدٍ بمنزلها، وتُدير لهنّ لقاء أسبوعيًّا، يتعارفّن فيه ويتبادلن الأحاديث الودية، فلم تنجح .. وجدت صعوبة في التجانس بينهنّ؛ بسبب نوعية التركيبة السكانية والاجتماعية المعقدة في الحي .. فيه خليط من الجنسيات المتنوعة والثقافات المختلفة والأعمار المتفاوتة، ناهيك أن بعضهنّ لا يتقبلن بعضًا؛ بسبب بعض المشاكل بين الجارات. لقد أتاح هذا التواصل الاجتماعي مع أهالي الحي لأم (مبارك) أن تكون (خطابة الحي)، وأن تُمارس هذا النشاط بحرية؛ فهي العارفة بكل تفاصيل حياة من حولها من الأسر والعوائل.

***

(04)

لوّحت (بِلشا) بيدها اليسرى لصاحب سيارة أجرة، كان مارًّا بسرعة، لم ينتبه لوقوفها مبكرًا؛ بينما كانت تحمل بيدها الأخرى حقيبتها الثقيلة التي وضعتها على الأرض بجانبها .. توقفت السيارة عند قدميها رغم سرعتها المذهلة، بعد أن أزعج سائقها كل من في الشارع بشدة صوت فرامل عجلات سيارته، فبدا كأنه صقرٌ مُدرب انقض على فريسته .. دلفتْ (بِلشا) في المقعد الذي خلف السائق مباشرة؛ دون أن تتفق معه على سعر أجرة المشوار؛ مما أثار استغراب سائق سيارة الأجرة من تصرفها، ثمّ ناولته هاتفها الخلوي بعد أن استقرت في جلستها؛ ليقرأ عنوان المكان الذي تنوي الذهاب إليه ليتعرف عليه .. كان مكتوبًا برسالة نصية في (الوتساب) باللغة العربية واللغة الإنكليزية، فهز السائق الباكستاني رأسه؛ تأكيدًا على معرفة المكان الذي تُريده، وفي الطريق نظر إليها من خلال المرآة العاكسة التي أمامه مباشرة، وسألها دون مقدمات للكلام:

- هل تبحثين عن عمل؟

- لا، أذهب لزيارة أحد أقاربي، ثمّ أعود في المساء إلى هنا مرة أخرى.
- عمومًا، لو كنتِ تبحثين عن عمل سوف أقودك لمنزل أسرة ثقة أعرفها جيدًا بنفس هذا الحي الذي ستذهبين إليه، يُساعدون الفارات من بطش المعاملات القاسية لهنّ في البيوت، سوف يجدون لك عملًا مناسبًا وبراتبٍ مغرٍ.
- أنا لا أبحث عن عمل؛ شكرًا لك؛ وبدلًا من أن تنظر لي بالمرآة، انظر للطريق جيدًا؛ كي لا تصدم السيارات التي أمامك.
- سيدفعون لكِ راتبًا شهريًّا مُجزيًا.
- قلتُ لك لستُ بحاجة لعمل، وأنا لست هاربة من العمل كما تظن.

تصل (بِلشا) للحي الشعبي، فتقود سائق سيارة الأجرة من نافذ إلى نافذ في الحي، ومن نافذ ضيقٍ إلى نافذٍ أضيق، بمساعدة خرائط (قوقل)، حتى تصل لمنزل خالتها (جميلة)، الذي جاءت له قبل عدة شهور، ثمّ تطلب من صاحب السيارة أن يذهب بها للسوق القريب من منزل خالتها؛ بحجة شراء حاجة لها نسيتها .. تصل للسوق، وتدفع للسائق أجرته التي طلبها دون نقاش، وفي زحمة نُزولها وانشغالها في حمل الحقيبة نسيت جهاز هاتفها النقال على المقعد الخلفي للسيارة، ودلفت مسرعة

لمحل بيع عطور، وعيناها مشغولتان خلف زجاج المحل، تراقب صاحب سيارة الأجرة، وترجو الله أن يتحرك من مكانه؛ ظنًّا منها أن السائق قد يُراقب تحركاتها، وسوف يتابعها ليُخبر الشرطة فيما بعد عن مكان وجودها .. واطمأنتْ كثيرًا عندما شاهدت ثلاثة من الشباب وقفوا عند باب السيارة، ورأت أحدهم يتحدث مع السائق عبر النافذة، ثمّ دلفوا جميعهم لداخلها، وسرعان ما تحركت من مكانها، وعندما تأكدت (بِلشا) من ابتعاد السيارة عن السوق خرجت من المحل، وذهبت راجلة إلى الزقاق الضيق الذي به منزل خالتها؛ كي تُودع عندها الحقيبة لتُرسلها لوالدها بمعرفتها الخاصة. وقبل أن تصل لبيت خالتها شاهدت سيارة (مرور) قادمة من بداية النافذ، فخافت وهلعت، وظنت أنهم رجال (الشرطة) جاءوا يبحثون عنها في منزل خالتها (جميلة)، فدلفت في أول منزل قريب منها، كان بابه مفتوحًا؛ لتختبئ بخفةٍ عن أنظارهم، فارتقت درجات سُلّم، رأت بداية عتباته عند مدخل المنزل خلف باب الشارع مباشرة، قادتها تلك الدرجات نحو سقف المنزل المطل جزء منه على باحة المنزل .. شاهدتْ (بِلشا) (الملحق العلوي) المهجور، المكون من (غُرفة ودورة مياه، وبينهما ممر صغير مسقوف) .. دخلت الغرفة الممتلئة بالأثاث المستعمل عن بكرة أبيها، يعلوه الغُبار، فاختبأت بين قطع الأثاث المتراكمة بعضها فوق بعضٍ بصورة عشوائية، حتى زوال الخطر.

أخذتُ (سحر) للمستشفى الخاصة القريبة من منزلنا بعد أن تأكدتُ بأنها غير قادرة على التحكم بأعصابها بشكل طبيعي، ثمّ تركتها مع خالتي (صفيّة) حينما هدأت قليلًا، واستقرت حالتها النفسية نوعًا ما .. كانت تُردد على مسامعنا، وهي بين حالتي الوعي والإغماء: كيف أنام هذه الليلة بدون ابني (عامر)؟ كيف وضعه الآن؟ هل هو جائع؟ هل يُريد أن ينام ويبحث عن حضني؟ قد يبكي الآن لأنه افتقدني ويُريدني، أين ابني يا (عبد المجيد)؟ أريد ابني (عامرًا) حبيبي الآن.

وفي قمة هيجان ثورتها العاطفية يُغمى عليها؛ لتغيب في عتمة ظلام الهذيان .. حينها لم أشعر بشيء أبدًا غير أني وجدتُ نفسي أقود سيارتي مسرعًا لمركز الشرطة؛ لتسجيل حالة هروب خادمة، واختطافها لابني الصغير (عامر)، فتركت لديهم صورتها ومجموعة من صور ابني (عامر) كذلك، وزودتهم برقم هاتفها، وسألوني عن نوع الجهاز الذي تستخدمه (بِلشا)، ومن حسن حظي كنتُ أنا الذي اشتريته لها من حصيلة رواتبها، وطلبوا أرقام هواتفي وعنواني الكامل، وسألوني عن أسماء وأرقام هواتف أقاربها ومعارفها وعن كل من له علاقة بها، وأنا لا أعرف من أقاربها غير العنوان الكامل لخالتها (جميلة)، ثمّ رجعتُ للمستشفى؛ للاطمئنان على حالة زوجتي، فوجدت إدارة قسم الطوارئ قد نقلوها إلى قسم الحالات الحرجة جدًّا .. مكثنا عند رأسها؛ أنا والخالة (صفيّة) ما

يقارب الساعة، وكانت في غيبوبة تامة، لا نسمع منها شيئًا سوى أصوات أنفاسها المتدافعة.

عدتُ لمنزلنا بعد أن أفرغت كل ما في جعبتي من معلومات عن (بِلشا) لمدير مركز الشرطة، فتوجهت مباشرة لغرفة (بِلشا)؛ لعلني أجد أي أثر يقودنا لمكانها كما طلب مني مدير المركز .. بصري يجول في غرفتها الضيقة بكل حرية .. سرير حديدي لا يتسع إلَّا لنصف جسد .. خزانة خشبية مكسورة المرايا، وتسريحة فوضوية، فاكتشفت منذ الوهلة الأولى أن (بِلشا) أخذت جزءًا بسيطًا من ثيابها مع حقيبتها الجلدية، وتركت الكثير من متاعها الخاص، وكأنها ذاهبة بزيارةٍ وسوف تعود قريبًا، بحثتُ في (مجر) خزنة الملابس الخاص بها، أفتش بين ثيابها الفاقعة اللون التي تركتها، وبين أوراقها المبعثرة عن أية كتابات أو أرقام هواتف، لأذهب بها مسرعًا لمركز الشرطة؛ لعلها تكون منحة ربانية تُساعدهم في عملية العثور عليها، فلم أجد في الخزنة غير بعض الثياب المستعملة مما تنازلت عنهنّ زوجتي (سحر)، ورأيتُ في داخل (المجر) مجموعة من الدفاتر المدرسية الكثيرة، من عدة فئات، من النوع الذي يُطلق عليه طُلاب المدارس اسم: دفتر (وجه ووجه)، عادة يستعمله الطُلاب لمادة العلوم، صفحة مسطرة، والصفحة المقابلة لها بدون أسطر، كأنها ورقة كراسة الرسم، كانت الدفاتر مرتبة بعضها فوق بعض بشكل

أنيق، تصفحتها كُراسةً كُراسةً، فوجدتها قد ملأتها برسومات وكتابات بقلم الرصاص، لصور خيالية لأطفال وأمهات ومناظر طبيعية لمعالم أجهلها تمامًا، تُوحي للمشاهد مناظر البؤس والفقر والشقاء .. لم أرها في حياتي من قبل .. وجوهٌ واضحة المعالم، لكن لا أعرف أشباهها، ولأول مرة أرى مثل ملامحها، وصور لأطفال يُعذبون بعدة وسائل متنوعة، وامرأة عجوز رسمتها تضحك باستهزاء من مشاهد صور التعذيب .. وكأن صور هذا التعذيب تُعبر عن (فوبيا) تُحاصر عقلية القلم الذي رسمها من كل اتجاه .. وقفت مذهولًا جدًّا أمام هذه الرسومات التي بين يدي، وكأني أمام رسام ماهر وفنان محترف، يُريد أن يُسقط كل ما في مساحة خياله من ذكريات فوق هذه الصفحات البيضاء، يُريد أن ينهي ذلك الماضي المؤلم وخصوماته الشديدة .. ترسم (بِلشا) في الصفحة البيضاء وتكتب بلغة لم أفهمها في صفحة السطور، وأبشع ما رأيت من صور التعذيب بين صفحات دفاترها جميعًا، تلك المرأة التي رسمتها بصورة قبيحة جدًّا، وهي تُمسك بيد بنت صغيرة تلبس ثيابًا ممزقة، وتجرها بقوة من شعرها الطويل المجدول لضفيرتين؛ مُحاولة أن تُدخل يدها اليمنى في فوهة (التنور)، والنار مستعرة تُهدد بألسنتها المرتفعة للأعلى من يُحاول أن يقترب منها. استغربتُ كثيرًا من هذه الخادمة المبدعة، والوقت بالنسبة لي ليس متاحًا للتعبير عن مثل هذه المشاعر

الإنسانية الراقية، وسألتُ نفسي بعد أن رأيت هذه الأعمال الرائعة لها: هل أن الإبداع عند الإنسان تخلقه الظروف التي يُعاصرها، ويمر في دروبها الضيقة بمسيرة حياته؟ أم أنه يُعتبر فطرة تُخلق معه منذ نشأته وقبل ولادته، لكن المبدعَ يحتاج لمن يقوم بتحريك هذا الإبداع وتشغيله في نفسه؟ فالمبدع ينتظر أن تأتي الفرصة المناسبة لإيقاد شعلة إبداعه، وتفجير مخزون طاقاته الكامنة .. وعادة تكون مثل هذه البدايات إما من قبل صاحبه بعد صبر طويل، أو من قبل آخرين حوله يتصفون بالوفاء والإخلاص للعمل، فالإبداع مثل ملعقة سكر في فنجان (شاي)، بحاجة دائمًا لتحريك. فلماذا لم نتعرّف على إبداع (بِلشا) من قَبل؟! لماذا لم نستطع أن نُدرك مثل هذا الفن الرائع قبل اليوم الذي وقعت فيه المأساة؟! هل نتعايش مع الخدم كقطع أدوات مفرّغة من المشاعر، تُقدم لنا العون والمساعدة فقط؟! هل فعلًا نغفل عن رؤية الجانب الإنساني في حياة الخدم؟

فقبل عدة شهور روت لي (سحر) عن نمط من إبداعات (بِلشا)، في دقة تقليدها للأصوات بصورة بارعة، فنهرتها زوجتي عن هذا الطبع عدة مرات، وطلبتْ منها التوقف عن هذه العادة السيّئة التي تُمارسها بين فترة وأخرى، لكن (بِلشا) أصرت على استفزاز مشاعر (سحر)، عندما بدأت بتقليد صوت قط يموء جوعًا داخل منزلنا .. بحثوا عنه في

كل مكان بالمنزل، - ولمدة ثلاثة أيام - فلم يجدوا له أثرًا، ثمّ اكتشفت (سحر) بالصدفة أن (بِلشا) تُقلد صوت الخادمة (ليدا) في بعض الأحيان؛ مما أدى لخلق بعض المشاكل بين (سحر) وبين (ليدا)، ثمّ تجرأت (بِلشا) بتقليد صوت (سحر)، ثمّ صوت ابني (عامر) كذلك، وهددتها (سحر) بالترحيل لبلدها عندما اكتشفت بأنها تُقلد صوتي أنا أيضًا.

جمعتُ كل الدفاتر وأخذتها لمركز الشرطة، وفي الطريق إليهم كان قلبي يرتجف خوفًا من بشاعة ما رأيت من صور التعذيب في دفاترها، وفكرتُ في لحظتها بمصير ابني (عامر) الذي اختطفته .. بدأت (عجلة) التوقعات والظنون السيّئة تدور في رأسي، وتزيدني رعبًا وخوفًا وتوترًا لأعصابي، واستسلمتُ استسلامًا كاملًا لتداعي ملف ذكريات المقاطع الكثيرة التي شاهدتها في قنوات التواصل الاجتماعية، عن صور قتل الأطفال وتعذيبهم من قبل الخادمات الأفريقيات، وعن القصص الكثيرة التي سمعتها في المجالس العامة عن الخادمات، بخصوص اختطافهنّ للأطفال، ومن هذه القصص ما تكون صحيحة، ومنها القصص المكذوبة الملفقة عليهنّ بمبالغات، قد تدخل ضمن إطار الحرمة وعدم الجواز، وسمعتُ عن تلك الحكايات المروعة في ذبحهم للأطفال، من باب التقرب لربهم حسب معتقداتهم الدينية الوثنية الفاسدة، فسلمت كل الدفاتر لمركز

الشرطة وسألتهم: (إن كانوا ذهبوا لمنزل خالتها (جميلة) في الحي الشعبي وفتشوه؟)، فرد علي ضابط المركز بشيء من الحزم والجدية، محاولًا إخلاء مسؤوليته من هذه القضية:

- لقد حولنا القضية للمختصين، في إدارة البحث والتحري، سَننقل كل هذه الدفاتر إليهم؛ فربما يستفيدون منها.

لم أنتظر متابعة رجال قسم البحث والتحري للقضية، وذهابهم لمنزل خالتها (جميلة) في الحي الشعبي؛ فالمسألة بالنسبة لي ليست قضية هروب خادمة فقط؛ بل جريمة اختطاف طفل، تعني لي سرعة البحث عن ابني (عامر)، بأي طريقة كانت، ومهما كلف الثمن، خصوصًا بعد أن رأيت بشاعة صور التعذيب التي رسمتها (بِلشا) فوق صفحات دفاترها .. لا أدري لماذا فكرتُ في وقتها أن ابني الحبيب (عامرًا) بين يديها، وهي الآن تتفنن في وسائل تعذيبه، بنفس الطريقة التي تفننت فيها برسم صور التعذيب فوق صفحات دفاترها؛ لذا يجب أن أنقذه بسرعة، فذهبت مسرعًا لمنزل خالتها (جميلة)، الذي أعرف الطريق إليه جيدًا، فأنا أذهب للحي في نهاية الشهر، وأقصدُ دكان (زيد)؛ لتسديد حساب عشرة فقراء محتاجين في قائمة دفتر حساباته، طرقتُ باب الحديد الضيق ذا الفتحتين بيدي، لم يخطر في حساباتي بوقتها غير السؤال عن الخادمة (بِلشا)، سمعتُ من خلف باب المنزل صوت أحد

النساء الشابات، التي لا يتجاوز عمرها العقد الثالث، تتكلم العربية بأسلوب الأفارقة غير الناطقين بالعربية:

- من بالباب؟
- أنا (عبد المجيد)، أريد أن أتكلم مع الخالة (جميلة).
- خالتي (جميلة) في السوق.
- متى تعود من السوق؟
- لا أعلم، عادة بعدما تنتهي من العمل في (البسطة).
- في أي سوق تبسط؟
- لا أعلم، الخالة (جميلة) متنقلة في (بسطتها) بين الأسواق.
- هل أنت صاحب المكتب العقاري؟
- لا.
- إذا كنت صاحب البيت؟ فخالتي (جميلة) قالت لي لو جاء صاحب المكتب العقاري أو صاحب البيت قولي لهما: مغرب هذا اليوم سيدفع زوجها (إلياس) قيمة إيجار البيت إن شاء الله.
- لا .. أنا لست صاحب البيت ولا صاحب المكتب العقاري.

فقررتُ أن أستفزها بسؤالها عن (بِلشا) لأرى جوابها ..

- هل أكلم (بِلشا)؟
- من هذا (بِلشا)؟
- خادمة تعمل عندنا، وجاءت لزيارة خالتها (جميلة).
- عذرًا .. ظننتُ أن (بِلشا) اسم لرجل وليس لامرأة، وليس هنا مكان للخادمات الهاربات، ولا نعرف خادمة اسمها (بِلشا).

هنا عرفتُ من جوابها أنها تُريد الهروب، وعدم تحمل أي أعباء قد تقع على عاتقها لاحقًا؛ لذا وجدتُ نفسي مضطرًّا لإعادة الحديث معها كي لا تُنهيه:

- هل زوج الخالة (جميلة) هنا؟
- لا .. هو في العمل كذلك.
- ما اسمه؟ ومتى يعود للبيت؟
- اسمه (إلياس)، ولا أعلم متى يعود أخي (إلياس) للبيت، فمواعيد عودته للمنزل ليست ثابتة، تعتمد على توفر العمل، وليس على عدد ساعات العمل.
- ماذا يعمل أخوك (إلياس)؟
- سائق (شيول) في مؤسسة مقاولات.

- هل ممكن تعطيني رقم هاتف الخالة (جميلة)، أو رقم هاتف أخيك (إلياس)؟
- عذرًا، لا أعرف أرقام هواتفهما .. قبل أسبوع واحد جئت إلى هنا، وبإمكانك العودة في الليل، وإذا كنت صاحب المكتب العقاري أو صاحب البيت فسوف تصل لك قيمة الإيجار قبل أذان العشاء.

تركتها بعد أن أيقنت أنه لا توجد فائدة من الحوار مع فتاة مصرة على الجواب بلا أعلم، وتدعي بأنها حديثًا قدمت للبلد، ليس لدي صلاحيات بكسر قفل الباب، والدخول لتفتيش البيت، والتأكد من في داخل هذا الكهف المسكون؟ جلستُ في داخل سيارتي؛ أراقب حركة المنزل (أضرب أخماسًا بأسداس)، كحارس أمن يعد الأيام كي تأتي نهاية الشهر؛ ليستلم مرتبه .. يقف يوميًّا عند أحد أبواب الأسواق المركزية، لا هم له غير مراقبة الناس، والتفرس بوجوههم؛ بحثًا عن صفات معينة، ومتابعة أقدام المارين بالقرب منه، الفارين من حرارة الشمس، أو برودة أيام الشتاء .. لم يُفكر في يومٍ من الأيام بعمل إحصائية بسيطة عن عدد الداخلين للسوق والخارجين منه عبر بواباته، ليحتفظ بها كمعلومة صالحة للتداول في قنوات التواصل الاجتماعية الكثيرة.

مضتْ أكثر من ساعة .. كانت لحظاتها ثقيلة جدًّا على قلبي .. كنتُ جُل وقتي مصوبًا نظري بتركيز عالي الكثافة على باب خالة (بِلشا)، كلما حاولت أن أنسى بشاعة صور دفاتر (بِلشا) .. تحركت إحدى رسوماتها المخيفة تستنطق خوفي من جديد على ابني (عامر) من تصرفاتها، وصور جرائم الخدم للأطفال التي نسمعها ونقرأ عنها تتقافز أمام نظري، ينتشلُ بعضها بعضًا بشدةٍ وإلحاح .. شعرتُ حينها لأول مرةٍ بصبرٍ عجيب على تحمل مرور هذا الوقت البطيء في سير عقارب دقائقه وثوانيه، ثمّ فجأة شاهدتُ باب منزل الخالة (جميلة) يُفتح بهدوء، وتخرج منه امرأة (منقبة) كباقي نساء الحي، لا ترى منها غير العينين السوداويتيّن، بمواصفات متطابقة مع خادمتنا (بِلشا)، بطولها ونحافتها ولون بشرة يديها، تسير بخفة ورشاقة، تتدلى حقيبة سوداء متأرجحة من كتفها، فتعقبتُ أثرها راجلًا دون أن تشعر بأني أتابعها، فاتخذت سبيلها نحو دكان (زيد)، فسرتُ بنفس الاتجاه، وتجاوزتُ الدكان بعدة خطوات، ووقفتُ عند نهاية النافذ؛ آملًا أن لا تُلاحظ وجودي خلفها؛ لتطمئن في تحقيق هدفها، مكثتْ في الدكان بما يُقارب الخمس دقائق، ثمّ خرجتْ تحمل بيدها كيسًا كبيرًا، فدلفتُ مسرعًا لدكان (زيد)، وسألته عن: (من تكون هذه المرأة المنقبة؟)، فظهر على وجهه علامات الاستغراب من تطفلي عليه بمثل هذا السؤال، سؤال عن امرأة منقبة لا أعرفها، رغم

معرفته الجيدة بأخلاقي الحسنة، فأخبرته عن حقيقة الأمر، وعن قصة هروب خادمتنا (بِلشا)، وعن اختطافها لابني (عامر)، وأخرجتُ له من محفظتي صورتي (بِلشا) وابني (عامر)؛ ليتعرف عليهما، فهز رأسه متألمًا لما سمعه، وحرك شفتيه بكلمات سريعة، بصوت منخفض لم أتمكن من سماعها لمعرفتها، ثم قال بصوت مُتأثر جدًّا:

- لم أشاهد مثل أشباه هذه الخادمة في الحي، والمرأة التي رأيتها قبل قليل اسمها (زينة)، أخت العم الطيب (إلياس) زوج (جميلة) .. في الأسبوع الماضي جاءت من بلدها للعمل هنا.

فشكرتُ اليماني (زيدًا) على هذه المعلومة التي لا قيمة لها عندي، وعدتُ لمقعدي بسيارتي؛ لمراقبة المنزل من جديد .. لا أدري ماذا أفعل؛ فزوجتي تركتها في المستشفى، ومصير ابني غامض، ولا أعلم أين هو الآن؟ فجأة تشتت عائلتي دون أي مقدمات، وعرفتُ أنه من السهل أن يتعرض الإنسان للشتات، في أي لحظة من حياته، وأصبح شروق الأمس الجميل في حياتنا كالبحث عن قطعة سراب في يوم غائم .. صعبٌ علينا رؤيته .. أُغني على ذكريات تلك الأيام الجميلة، وكل يوم جديد غدى كالكابوس المزعج .. أنتظر بخوف عبورنا جسر ساعاته .. كل دقيقة أنتظر أن تأتي لنا من حيث لا نعلم بفاجعة جديدة.

وبينما كنتُ مشغولًا في همّي العظيم، ويقتلني التفكير بالثلاثة معًا (زوجتي، ابني، بِلشا)؛ إذ بي أفاجأ بسيارة (نَجْدة) سوداء اللون قادمة من بداية الشارع .. توقفت قُرب بيت الخالة (جميلة) .. ترجل منها ضابط برتبة نقيب، كما هو واضح من النجوم الثلاثة اللامعة فوق كتفيه، كان جالسًا في المقعد الأمامي، وشرطي يقود السيارة لم أعرف رتبته؛ لجهلي أسماء الرُتب العسكرية، ومعهما رجل لا يتجاوز عمره الأربعين سنة، يرتدي (سروالًا) أزرق اللون، من النوع الذي يُطلقون عليه اسم (جينز)، وقميصًا أبيض اللون؛ وواضعًا على رأسه قبعة ذات لون أزرق؛ لستر صلعة رأسه التي اكتمل بدرها .. ترجل الثلاثة من السيارة، فأخرج الرجل الذي يرتدي (السروال الأزرق) من جيبه حلقة عُلق فيها عدد من المفاتيح الملونة .. لم أتمكن من عدها، فاختار منها المفتاح ذا اللون الأخضر، ودسَّ مقدمته في فتحة قفل الباب، ثم دار المفتاح باتجاه اليمين؛ ليفتح لهم الباب بهدوء، فعرفتُ أنه (إلياس) .. سمعته يُنادي على أخته (زينة)، ويطلب منها أن تستر نفسها بعباءتها .. نويت أن ألحق بهم؛ وأبحث معهم عن ابني (عامر)، فتريثت لرؤية ما تُسفر عنه هذه الزيارة المفاجئة، ثمّ خرجوا من بيت الخالة (جميلة) بعد نصف ساعة من الزمن .. لا أعلم ماذا فعلوا بداخل المنزل، وماذا فتشوا، ثمّ أخذا معهما (زينة) وأخيها (إلياس) في سيارة (النجدة) إلى حيث لا أعلم، وسرعان

ما انتشر خبر مداهمة (الشرطة) لمنزل (جميلة)، وحكاية القبض على المجرم (إلياس) وأخته (زينة) في أرجاء الحي، وتعددت الروايات التي حُبكت حول هذه المحنة لهما، وكَثُرت الأقاويل عنهما، وأصبحت زيارة الشُرطة لهم حديث الحي وفاكهة مجالسهم، فالكل يتحدث عن عائلة (إلياس) و(جميلة) برؤيته الخاصة، التي تعكس سر علاقته بهم، فقد نسبوا لهما تُهمًا كثيرة ليس لها أصل ولا صحة على أرض الواقع، ومن أبشع صور هذه الأقاويل التي انتشرت بالحي، أن منزلهم وكرٌ للخادمات الأفريقيات المجرمات الهاربات، وآخرون بالغوا في كلامهم، وتجرءوا على سيرة أخلاقهم الشخصية، فقالوا في حقهم كلامًا لا ينبغي التلفظ به بحقوق الجيران، وهكذا يكون مصير الجَمَل عندما يسقط؛ فتكثر سكاكينه.

لقد بالغ أهل الحي الشعبي كثيرًا في حديثهم عن كرامات (نصيب)، ومن شدة مبالغاتهم عنه قالوا: من كراماته أن الله سبحانه وتعالى سخر له قلوب بعض عباده من أجل خدمته وتسهيل مهمته، فأتى رجل غريب للحي، لأول مرة يزوره في حياته، فتعرف على (نصيب) بطريقةٍ عجيبةٍ وغريبةٍ؛ كأنه مرسلٌ إليه، فقام الرجل بدفع حساب مشتريات (نصيب) من دكان (زيد)، ثمّ يلتزم بتسديد حسابه في نهاية كل شهر؛ بل تجاوزت كرامات (نصيب) ذاته لتشمل غيره من أبناء جيران الحي، فيدفع الرجل

المجهول حسابات بعض بيوت الحي الذي يُقيم فيه (نصيب)، ويأتي في نهاية كل شهر لدكان (زيد)، لا يعرفه أحد من سكان الحي، سوى (زيد)، الذي يرفض أن يكشف لهم عن اسمه بناءً على توصياته، فيُقرع بين مجموعة من الأسماء المستحقة للدعم والمساعدة في الحي؛ لاختيار من بينهم عشرة أسماء، مُسجلين في دفتر حسابات دكان (زيد)، فيُسدد عنهم قيمة حساب مشترياتهم للشهر الجاري. لكن بعض أبناء الحي، بالأخص الذين لم يصل إليهم شيء من كراماته قالوا: (إن نصيبًا سحر هذا الرجل الغريب، فجعله يدفع حساب مشترياته بلا شعور وإحساس).

مثل هذه الحكايات المنتشرة بين أبناء سكان الحي، التي كثيرًا ما تسمعها (صلحانة) عن زوجها، فيما يخص كراماته، زادتها شكًّا في أن زوجها فعلًا يتعامل مع الجن كما قيل عنه؛ فلقد بدأت في الآونة الأخيرة تظهر لها في البيت بعض التصرفات الغريبة منه، ومن الجن التي يتعامل معها .. ففي أحد الأيام بعد عودته من المسجد جاءت لغرفة نومه تسأله إن كان جائعًا فتضع له الغداء؟ أو ينتظر لما بعد أداء فرض صلاة الظهر؟ لكنها وجدته نائمًا، فقالت في نفسها خيرًا، فلم تُكلمه، وبعد أن أدت فرض صلاتها ذهبت للمطبخ، وفتحت غطاء (القِدر)؛ لتضع مما طبخت

في الطبق، فوجدت كمية (الرز) ناقصة، عادت للغرفة مسرعة لتُعاتب (نصيبًا):

- هل تضحك علي أبا (مبارك)؟ تأكل من الغداء وتُحاول أن تخدعني بأنك نائم؟
- لم أدخل مطبخك يا (صلحانة) منذ فطور صباح هذا اليوم، ولم أذق طعم غدائك لهذا اليوم.
- أجل من غيرك أكل من غدائنا؟
- لا أعلم.
- هل أسأل الجن التي تتعامل معها، ربما هم يعرفون من دخل مطبخنا ومن مد يده على غدائنا.
- يا صلحانة: عندما ترد عليك الجن أخبريني ماذا قالت لك.

فيأخذ العم (نصيب) هذا الحدث على محمل الهزل، ويضحك من موقف زوجته أم (مبارك) بعد أن تقدم بها العمر، ثمّ يضع (المسواك) في فمه، وراح يُحركه بين فكيه، بينما زوجته (صلحانة) اعتبرت أن الأمر مثل ما توقعته، ورأت في سكوته وعدم تبريره ودفاعه عن نفسه تأكيدًا لكلامها، بأن الجن يأكلون من طبخاتها اللذيذة، وأن أبا مبارك يُضيّف

زُواره من الجن ويكرمهم دون علمها. وراحت تحكي بعض هذه التصرفات التي تعرضت لها مع زوجها لمن حولها من أقارب وجارات مقربات لها، فصدق بعضهنّ روايتها، وكذبنها أخريات غيرهنّ.

***

(05)

رن جرس جهاز هاتفي الخلوي الذي كنتُ أحمله بيدي برقم اتصال غير مسجل في قائمة هاتفي، كنتُ قبل وقوع أزمة اختطاف ابني (عامر) لا أرد على اتصالات الأرقام غير المخزنة في قائمة جهاز الهاتف، لكن منذ اللحظة الأولى لهروب (بِلشا) بدأت أرد على أي اتصال يومض به هاتفي، وفي كل الأوقات، سواءً كان الاتصال في الليل أو في النّهار .. لا أتردد أبدًا في الرد على المتصل؛ فكل ظني أن المتصل ربما يُفاجئني بخبر عنهما، أو أن يفتح معي مساومة مادية أو عينية؛ من أجل الحصول على ابني المختطف؛ لذا فإني لم أتأخر في الرد على هذا المتصل ذي الرقم الغريب فورًا، وبعد رنة الجرس الأولى، قلتُ له بلهجة مستعجلة وجافة جدًّا:

- نعم.
- السلام عليكم.

- عليكم السلام.
- هل هذا الرقم خاص بالسيد (عبد المجيد ...)؟
- نعم، وأنا (عبد المجيد ...) .. تفضل.
- معك النقيب (مبارك بن نصيب).
- من عفوًا؟!
- النقيب (مبارك بن نصيب)، هل ترغب أن أعيد الاسم لك مرة ثالثة؟

عندها سألته مباشرة دون تردد:

- عفوا: هل أنت الأخ الأكبر لكل من (سعيد) و(عيد)؟
- نعم، ولكن كيف عرفت؟ ومن تكون أنت بالضبط؟
- أهلا أبا (نصيب) .. مرحبًا بك .. هل تذكرني؟
- طبعًا لا .. مع الأسف.
- درستَ معنا سنة كاملة في كلية الهندسة، ثم حصلت على قبول في (كلية الشرطة)، فنقلت ملفك، هل تذكر؟
- نعم أذكر هذا الحدث جيدًا . كان في بداية دراستي الجامعية، وعذرًا لا أذكر اسمك، ولا أذكر أسماء طلاب ذلك العام، ربما حين ألتقي معك وجهًا لوجه، وأرى ملامح وجهك أذكرك.

عمومًا أنا النقيب المكلف بمتابعة قضية اختفاء ابنك (عامر)، وهروب الخادمة الأفريقية (بِلشا)، فلو وجدت أية معلومات عنهما تُفيدنا وتساعدنا في البحث والتحري لا تتردد أن تتصل بي، في أي وقت. نحنُ بدورنا قُمنا بالتعميم على جميع شركات سيارات الأجرة في المدينة، بخصوص بحثنا عن خادمة أفريقية هاربة من أحد أحياء شمال المدينة، معها طفل صغير، لا يتجاوز عمره السنتين، ونشرنا صورتها وصورة ابنك (عامر)، وردتْ لنا أخبار من أحد سائقي سيارات الأجرة بأنه نقل إحدى الخادمات الأفريقيات من حي في شمال المدينة، الذي تُقيمون فيه إلى الحي الشعبي بوسط المدينة، الذي تُقيم فيه خالتها (جميلة)، في نفس وقت هروب خادمتكم (بِلشا) تقريبًا، أخبرنا بأنها توقفت في سوق الحي الشعبي، وحديث سائق سيارة الأجرة هذا يتطابق مع البيانات التي رصدتها لنا شركة (الهاتف الخلوي) عن حركة تنقلات شريحة هاتفها، فلقد قالوا بأن صاحبة الشريحة توقفت في السوق المحلي للحي الشعبي، وأخبرنا سائق سيارة الأجرة كذلك: (بأن المرأة كانت كاشفة الوجه، وملامح وجهها مطابقة للصورة التي عرضناها عليه، وكانت تحمل معها حقيبة كبيرة، لونها أحمر، وليس معها طفل).

- ماذا؟! كيف؟! أين ابني (عامر) إن لم يكن معها؟ ومن المستحيل أن تضع طفلًا صغيرًا بمثل هذا العمر بداخل حقيبة ملابس، مهما كان حجم الحقيبة كبيرًا، لا يمكن أن تستوعبه وتُخبئه فيها، إلَّا أن تجعله قطعًا من اللحم، عمومًا أن (بِلشا) حملت معها حقيبة حمراء كبيرة فعلًا؛ إلَّا أنها كانت شبه فارغة، فلم تأخذ معها كل ثيابها وحاجياتها الموجودة في الدولاب؛ فقد جمعتْ أشياء قليلةً مما تحتاج، وتركت الكثير من أشيائها الخاصة، فعلى سبيل المثال؛ فهي لم تأخذ دفاتر رسوماتها البشعة المحببة لها.
- ربما تكون (بِلشا) خبأت (عامرًا) في أحد الأماكن بمنزلكم، بعيدًا عن أنظاركم، في أماكن لم تفكروا فيها ولم تخطر لكم، فهل بحثتم جيدًا في أماكن يكون فيها مخبأ لطفل؟ سنرسل لكم فريق تحري لمنزلكم؛ ليقوم بتفتيش منزلكم بدقة؛ بحثًا عن أي أدلة أو براهين غير مرئية بالنسبة لكم.
- نحن بحثنا في كل الأماكن المتوقعة وغير المتوقعة، حتى في المساحة الضيقة التي تحت المصعد الكهربائي، بحثتُ فيها أنا

بنفسي، فلم أجد فيها غير بيوت العناكب التي تُعشش فيها، وحُفر النمل الأسود الكثيرة.

- يا (عبد المجيد)، نحن فتشنا بيت خالتها (جميلة)، فلم نعثر على أي أثر لخادمتكم (بِلشا)، رغم أن شريحة بيانات رقم هاتفها أظهرت لنا وصولها إلى بيت خالتها (جميلة)، وحققنا مع خالتها (جميلة)، فأنكرت معرفتها بهروب (بِلشا)، ولا تعلم عنها شيئًا منذ يومين، ولم يسبق لبِلشا أن حدثتها عن نية هروبها، أو أن لها مشاكل في عملها، وسجلُ رقم شريحة بيانات هاتف الخادمة (بِلشا) يُشير إلى اتصالها بخالتها قبل يومين فعلًا، وحققنا مع (إلياس) زوج خالتها، فأنكر معرفته بكل التفاصيل عن (بِلشا)، وقال: (هذه علاقة بين زوجتي وابنة أختها، وليس لي شأن بينهما)، وسجل شريحة رقم هاتف (إلياس) لم يظهر لإدارتنا أي اتصال هاتفي سابق مع (بِلشا)، واكتشفنا بأن شريحة رقم الهاتف الخلوي التي يستخدمها (إلياس) في جهاز هاتفه ليست مسجلة رسميًّا باسمه، بل مسجلة باسم قريب له غادر البلد قبل عدة شهور دون عودة، واكتشفنا من بيانات سجل شريحة رقم هاتف (بِلشا) ما يُشير لانتقالها بعد ربع ساعة من وصولها للحي الشعبي إلى حي آخر في غرب المدينة .. عممنا صورتها مرة أخرى على كل شركات سائقي

الأجرة في المدينة، بخصوص نقل خادمة أفريقية من الحي الشعبي في (الديرة) إلى غرب المدينة، فلم يُقدم لنا أي سائق سيارة أجرة خبرًا عن نقل صاحبة الصورة إلى حي غرب المدينة، الذي ليس بعيدًا عن الحي الشعبي، والغريب في الأمر أن (بِلشا) مكثتْ في حي غرب المدينة بعض ساعات، ثمّ غادرتْ الحي متجهة لسوق (البراحة) المركزي، كما تُشير بيانات سجل شريحة هاتفها، ثمّ أغلقتْ جهاز هاتفها بداخل السوق، ونحن نظن أن (بِلشا) أعدمت شريحة هاتفها، بعد أن باعت الجهاز بنفس السوق، ولم نجد تفسيرًا منطقيًّا أو تبريرًا آخر لسبب انقطاع شريحة رقم هاتفها عن شبكة الهاتف، ربما تكون قد احتاجت لمبلغ من المال لتصريف أمورها المستعجلة، فاضطرت لبيع جهاز هاتفها على أحد محلات الهواتف الذكية في سوق (البراحة)؛ ففي هذا السوق يُوجد عدة (بسطات) لبيع وشراء الهواتف الذكية، وفي هذا السوق بالضبط انقطع تواصل شريحة رقم هاتفها عن شبكة (الاتصالات الخلوية) .. قمنا بالتحري وسؤال أصحاب (بسطات) أجهزة الهواتف الخلوية المستعملة في السوق، الذي يعج بعشرات المتسوقين من كافة الجنسيات والأعمار، عن من ابتاع جهاز (أيفون **5**) بلون أبيض خلال اليومين الماضيين؟ فتعاون معنا اثنان من باعة (البسطات) ..

أخبرنا الأول منهما بأنه ابتاع جهاز هاتف من هذا النوع، بنفس المواصفات من شباب عددهم ثلاثة، أتوا بالجهاز مساءً، وكان أحدهم يدعي بأن الجهاز ملكه الخاص، ويُريد أن يستبدله بجهاز (أيفون **6**) الجديد، فدفع قيمة الفرق بين سعر الجهازين، أما البائع الآخر فأخبرنا بأن الجهاز الذي ابتاعه أتى به رجل متقدم بالعمر، في منتصف الخمسينيات تقريبًا، حاصر المشيب معظم شعر لحيته الخفيفة وشعر رأسه، الذي تكاسل عن صبغه بلون أسود، والبائعان لم يجدا بداخل جهازي الهاتف شريحة بيانات، وعقب شراء الجهازين مباشرة قاما بتنظيف كل البيانات المخزنة في ذاكرتهما - مع الأسف - استعدادًا لعرضهما للبيع كالعادة، وعندما استعدنا بيانات كلا الجهازين من قبل إدارتنا، اكتشفنا أن الجهاز الذي أتى به الشباب الثلاثة خاص بالخادمة (بِلشا)، فاحترنا كيف نصل لهؤلاء الشباب الثلاثة، ولم نعثر على أية آثار للبصمات على الجهاز، فصاحب (البسطة) قام بتنظيف الجهاز جيدًا من كل الآثار الداخلية والخارجية!! فاحترنا من هم هؤلاء الثلاثة الذين أتوا بجهاز هاتف (بِلشا)!! هل لها علاقة مع أحدهم؟ هل لها معارف في أحياء غرب المدينة؟ وهل تعرضت (بِلشا) للاعتداء؟ أم للاختطاف؟ أم للسرقة؟

- أبا (نصيب) .. لا أعلم، ولأول مرة أسمع منك أن لها علاقة بحي في غرب المدينة.
- هل من الممكن يا (عبد المجيد) أن تسأل زوجتك إن كان للخادمة (بِلشا) علاقة بهذا الحي؟ ربما تكون زوجتك قد سمعتْ منها، أو أن تسأل الخادمة الآسيوية عن هذا بنفسك، رغم أنّ سجل مكالمات (بِلشا) - كما تُشير بيانات شريحة رقم هاتفها الخلوي - يدل أنها لم تُسجل أية مكالمات هاتفية مع غرباء غير خالتها (جميلة)، وامرأة أخرى اسمها (خديجة)، من نفس جنسيتها، غادرتْ لبلدها قبل شهرين بدون عودة، كما عرفنا من سيدها الذي كان رقم شريحة هاتفها الخلوي مدرجة باسمه الشخصي.

***

(06)

اعتادت (صلحانة) زيارة إحدى جاراتها بعد خروج زوجها لسوق (الديرة) يوميًّا كعادته، حيث يقضي (نصيب) جُل ساعات صباحه بهذا السوق، مع بعض أصحاب الصبا، الذين يجتمعون بدكان صاحبهم (أبو محيّسن)، الذي يحرص كثيرًا على حسن ضيافتهم، ويتفقدهم هاتفيًّا إن غابوا عن الحضور لمجلسه، كما عرفتُ من اليماني (زيد) .. وأبو (محيّسن) تاجر بسوق (الديرة)، يبيع المواد الغذائية بالجملة والمفرق، يقضون معظم ساعات صباحهم في الحديث عن ذكريات قريتهم (الأفلاطونية)، وعن حكايات أيام صباهم وشبابهم، و(نصيب) يُحاول بكل جهده في محاكاتهم، بسرد قصص بطولات سمعها من آبائه الميامين وأجداده المغاوير، فَهرَّبَ لأسماعهم متعمدًا بعض البطولات التاريخية عن جده العاشر، نسجها من صُنع خياله .. معظم حديثهم يدور عن أيام زمان، ومقارنتها بالوقت الحاضر .. ذكريات برائحة عطر الآباء والأجداد، وبرائحة الطين في يوم شتاء ماطر بارد، وبدفء نار الحطب ودخانه،

وحديثهم عن الاكتفاء الذاتي في حياتهم لا يقف ولا يُمل، فكان شعارهم بذلك الزمان: (من ملك قوت يومه شكر ربه)، ذكريات طابع بثها باللون الأسود والأبيض، المتقطع الإرسال؛ بسبب صوت ثورة سعال انتابت مريضًا جالسًا معهم، أو بسبب كثرة الإعادة لضعف السمع عند أحدهم، ذكريات ينتابها الوضوح والصدق والأمانة، لا تنتهي أبدًا، كأنهم يقرأون من كتاب قصص (ألف ليلة وليلة)، في كل يومٍ لهم حديث شيق وممتع وجديد، وكل يوم يقدمون لونًا جديدًا من ألوان ذكرياتهم. و(صلحانة) تعلم جيدًا بأن زوجها لن يأتِ قبل آذان الظهر بنصف ساعة؛ من أجل الوضوء استعدادًا لصلاة الظهر في مسجد الحي الذي يُقيم به .. لا يحب الصلاة في المساجد والجوامع الأخرى؛ فهو يشعر بهيبة وعظمة خشوعه في مسجد الحي القريب من بيته .. لا يُفضل تغيير مكان صلاته الذي اعتاده؛ فهو يتواجد دائمًا في منطقة محراب المسجد، خلف الإمام مباشرة، وعادة تكون مثل هذه الأماكن التي تقع خلف الإمام مباشرة محجوزة لمصلين معروفين بأسمائهم من سكان الحي.

تقضي (صلحانة) جُل وقت صباحها في زيارة جاراتها، ثمّ العودة للمنزل قبل مجيء زوجها من السوق، وفي أحد الأيام عند عودتها لمنزلها رأته نظيفًا ومرتبًا، وشاهدت جميع الأواني التي تركتها في حوض الغسيل بعد الفطور نظيفة ومرتبة في أماكنها المخصصة لها، فابتسمت وقالت في

نفسها: (لقد اقتنع (نصيب) في آخر عمره بضرورة مساعدة زوجته .. لقد عرف أن الحياة الزوجية شراكة بين اثنين، كم كنتُ أطالبه بمثل هذه الحقوق الزوجية منذ بداية زواجنا، مثل معاملة جارنا (أبو سليم)، الذي كان يساعد زوجته في بعض أعمال المنزل بهمة ونشاط، قبل أن يأتي بخادمة لمساعدتها؛ فقد نظر للحياة الزوجية أنها شراكة وتعاون بين اثنين). وحين عودة (نصيب) من المسجد مباشرة، استقبلته (صلحانة) في باحة المنزل بوجهٍ ضاحكٍ مُبتسمٍ؛ لتُعبر له عن مدى فرحتها وسعادتها على مساعدته في هذا اليوم، فخاطبته بصوتٍ يطغى عليه شيء من أسلوب التودد والحنان الذي لم يعهده عليها سابقًا:

- أخيرًا اقتنعت أبا (مبارك) بمساعدة المرأة في شؤون المنزل؟
- لا وألف لا .. لم أقتنع بعد ولن أقتنع بمثل هذا الأمر، ولن أكون خروفًا لكِ في يوم ما، فالمنزل وشؤونه عمل خاص في سيادة المرأة، وليس في الرجل، والمرأة سيدة في بيتها وهي ربته؛ ولذا يُقال عن المرأة أنها (ربة بيت)، وكل أعمال المنزل الصغيرة والكبيرة موكلة لها وحدها دون غيرها، وهذه الميزة منحة ربانية؛ الله سبحانه خصها، فلمَ تُصر الزوجة على التفريط بمثل هذه المسؤولية؟! وحتى الخادمة أرى وجودها في البيت خطر على أفراد المجتمع؛ يجب تجنبها، وأنّ وجود الخادمة في البيت يجب أن

يكون مرتبطًا بالحاجة والضرورة فقط، كأن تكون المرأة مريضة أو نفساء مرضعة؛ فوجود الخادمة في المنزل اعتداء صارخ على حقوق المرأة الشخصية التي منحها الله لها، سواء شعرت المرأة بمثل هذا الاعتداء أم لم تشعر به.

- أجل، قل لي بالله عليك: من الذي قام بتنظيف المنزل وغسل أواني الفطور لهذا اليوم؟
- لا أحد غيركِ أنتِ يا (صلحانة)، مثل كل يوم.
- هل تمزح معي يا (نصيب) في آخر العمر؟ أم أنها من أحد ألاعيبك مع الجن، الذين وظفتهم في خدمتك الخاصة، وصاروا يأتمرون بأمرك؟
- بالتأكيد لا هذا ولا ذاك؛ بل هذا هو الذي يسمونه بالخرف المبكر عند النساء .. لقد دب في حياتك يا (صلحانة)، فتعطلت ذاكرتي الزمان والمكان في مركز ذاكرتكِ، وتلاشت منها بعض الصفحات المهمة، وأنا لازلتُ مستغربًا من بعض تصرفاتكِ؛ فقبل كم ليلة مضت، بينما كنتُ ذاهبًا لأداء صلاة الفجر مع الجماعة، سمعتُ صوت خطواتك خلفي في (الدهليز)، الذي كان يغشاه الظلام، ثمّ سألتِ أثناء خروجي من المنزل: (هل عندك أولاد؟)، فعطفتُ عليكِ وعلى حالتكِ

الصحية المتدهورة، وأجبتكِ بنعم دون أن ألتفت لكِ: (لدينا ثلاثة أولاد)، ثمّ سألتِ مرة أخرى عن أسمائهم؟ فقلت لكِ: (هل نسيتِ الأسماء يا (صلحانة)؟ هم: (مبارك الكبير، سعيد الأوسط، ثمّ عيد الصغير)، فواصلتِ أسألتكِ المحيّرة لي وأنا أفتح باب المنزل لأضع قدمي اليمنى فوق العتبة الخارجية: (أين هم الآن؟)، فقلتُ لكِ بالفم المليء وأنا أغلق الباب خلفي بقوةٍ: (لقد طردتهم جميعًا)، وسمعتكِ من خلف الباب تسألين: (عن سبب طردهم)، فلم أرد عليكِ؛ فأنتِ تعلمين السبب.

- لم يحدث مثل هذا أبدًا يا (نصيب)؛ بل أنت من غزاه الشيب، وهجم عليه الخرف والنسيان مبكرًا دفعةً واحدةً، فليس من العيب أن يُساعد الرجل زوجته في واجبات المنزل، فلماذا تُخفي مساعدتك لي وتراها منقصة برجولتك؟ ومن شدة خرفك يا (نصيب) أصبحت تتعمد إغلاق مصابيح إضاءة الباحة والممرات في الليل دون شعور منك، وأنت تعلم جيدًا بأني حريصة على تركها مضاءة أثناء فترة الليل، وعندما أستيقظ في آخر الليل لأداء صلاة (الوتر) أجدك أغلقت الإضاءة كلها، وحولت المكان لظلام دامس، لا يمكن رؤية الأشياء فيه، وكلما أسألك عن السبب تُنكر بأنك فعلت ذلك، وتضحك من

تصرفاتي كثيرًا، وتنسب تلك الأعمال لخرفي المتزايد في الآونة الأخيرة، وتدعي بأني أنا التي قُمت بذلك، وفي الحقيقة لا أعلم ما سبب إصرارك على تلك التصرفات؟ هل أصبحت في آخر عمرك بخيلًا وحريصًا على المال لهذه الدرجة؟ هل دب في حياتك فيروس البُخل والتقتير علينا وعلى نفسك؟ أم أن مثل هذه التصرفات تُعتبر أوامر وطلبات من أسيادك (الجن)، الواجب عليك تنفيذها؟ لأنهم يحبون الحركة والتنقل في أجواء العتمة والظلام أثناء الليل؟ وأكبر دليل على خرفك أنت يا (نصيب)، أنك بعد ساعة من هذا النقاش والجدال سوف تتراجع عن كلامك، وأسمعك تعتذر لي من بعيد عن ما بدر منك، دون أن تجرؤ على مواجهتي، مثل كل يوم بعد انتهاء حصة الجدال الحاد الذي يحدث بيننا، وسوف تعترف بأنك من قام بغسيل الأواني وتنظيف المنزل وإغلاق مصابيح الإضاءة.

- بل الذي سيحدث هو العكس تمامًا يا (صلحانه)؛ فأنتِ التي ستعتذرين لي كعادتك مثل كل يومٍ على ما سببتِ لي من إزعاج بسبب خرفك.

لقد أصبحت هكذا حياة العم (نصيب) وزوجته (صلحانة) بعد أن تقدم بهما العمر، كل واحدٍ منهما يتهم الآخر بالخرف المبكر، يشتد

بينهما الخلاف والصراع لساعات طويلة، ويكاد يصل لمرحلة القطيعة بينهما، ثمّ سرعان ما يسمع أحدهما صوت اعتذار الآخر له وهو بعيد عنه، لا يواجه كل منهما الآخر مباشرة، ولا يرى وجهه، ويكفيه سماع صوت اعتذار الآخر له، والاثنان يقبلان مثل هذا الاعتذار عن طيب خاطر، وبنفس راضية.

يُحدث العم (نصيب) بعض أصحابه المواظبين في جلسة الضحى بدكان (أبو محيّسن) في (الديرة) عن مرض خرف النساء المبكر الذي تعرضت له زوجته (صلحانة)، يسألهم عن كيفية علاجه؟ وعن طرق الشفاء منه؟ فينصحه أحد أعضاء مجلس (أبو محيّسن) بالزواج بأخرى صغيرة وبسرعة، تُعيد إليه مرحلة الشباب من جديد كما فعل غيره، وترك زوجته أم (مبارك) على ما هي عليه من حالة في منزلها، فخرف الإنسان ليس له طبٌّ سريريٌّ لحد الآن .. (ولن يُصلح العطار ما أفسد الدهر)؛ فهو كما يقول العلماء والأطباء عن مرض (الزهايمر): (أنه نتيجة موت خلايا بالمخ لأسباب كثيرة، يقولون كل يوم تموت من خلايا مخ الإنسان ما بين ألف إلى عشرة آلاف خلية بعد بلوغه، وهذه الخلايا الميتة من أصل ثلاثين بليون خلية تكونت يوم خلقه).

وآخر نصحه بتجربة بعض الوصفات الطبية الشعبية الشائعة؛ لعلها تستفيد منها، والمكونة عناصرها - في الغالب - من خلطات زهور

أعشاب برية مجربة من قبل ناس كثيرين، فيبادر (نصيب) بسرعة شرائها دون تردد، من أقرب دكان للعطارين بالسوق، ويُقدمها لزوجته عند عودته لمنزله؛ بحجة أنها مفيدة لنشاط الجسم، ومقوية للعظام والعضلات، ومفيدة للرجال والنساء على حد سواء، فيُقنع العم (نصيب) زوجته بتناول ملعقة كبيرة منها مرتين يوميًّا لمدة شهر كامل، كما وصف له العطار طريقة الاستعمال؛ الملعقة الأولى قبل تناول الفطور بنصف ساعة مع كأس ماء دافئ، والملعقة الثانية قبل النوم بساعة مع كأس ماء بارد.

تنقل (صلحانة) كل ما يدور في منزلها إلى جاراتها الكثيرات، فتخبرهنّ بتفاخرٍ وتباهٍ عن تصرفات زوجها (نصيب)، الذي يُساعدها في أعمال المنزل .. بعضهنّ كذَّبنها، وقُلن إن أم (مبارك) تُبالغ فيما تقول، وإن شدة المبالغة في القول يُعتبر كذبًا وتدليسًا، فكيف لرجل مسن بمثل عمر زوجها (نصيب) أن يقتنع في آخر عمره بالقيام بأعمال المنزل نيابة عن زوجته!! وبعضهنّ صدقن روايتها، وحسدنها على نموذج هذا الزوج البار في بيته والمتعاون مع زوجته، وقُلن هذا هو (النصيب)، واسمٌ على مسمى .. وصنف ثالث من جلسائها ظَن فيها سوءًا وقُلن: إن جارتهن أم (مبارك) استخدمت السحر مع زوجها في آخر حياتها، إن صدقت فيما تزعم وتدعي على زوجها.

وعندما سمعت جارتها المخلصة لها أم (سليم) لغو بعض الجارات في المجالس حولها، نصحتها بشراء جهاز تسجيل، وتشغيل أشرطة للقرآن في كل صباح ومساء؛ لطرد شر النفوس الحاسدة لها، وعليها أن لا تحكي للنساء شيئًا من أسرارها، وعن ما يدور في بيتها من أحداث، وبالذات علاقتها مع زوجها (نصيب)؛ فمعظم النساء في الحي عادة تشتكي من سوء معاملة أزواجهنّ لهنّ؛ بل ويدعون عليهم ليل نهار بالبوار، وهنّ كاذبات غير صادقات، والواجب على الزوجة المحبة لزوجها أن تحافظ على أسرار بيتها، فلا تذيع للغير ما يحدث داخل أروقة منزلها، سواء كان خيرًا أو شرًّا.

سارعت (صلحانة) بتنفيذ وصية جارتها أم (سليم) مباشرة دون استشارة من أحدٍ .. فعند عودة زوجها من سوق (الديرة) طلبت منه أن يشتري لها جهاز تسجيل، مع شريطين لجزئي عمّ وتبارك، وتذرعت له بسبب دخولها في حلقة تحفيظ قرآن مع بعض جاراتها المُلتزمات، فابتسم (نصيب) وهز رأسه بهدوء، ولم يُعلق على طلبها، فحيّرها صمته كثيرًا، فزوجته (صلحانة) لا تعلم ماذا يُخبئ لها هذا الصمت المخيف؟ ماذا خلف جدار هذه الابتسامة الصفراء؟ احتارت في تفسيرها، وفور شراء (نصيب) جهاز التسجيل لزوجته وضعته فوق رف خشبي مرتفع قرب باب مطبخها، وبدأت بتشغيل جهاز التسجيل كل يوم، وتعوّدت

عند دخول زوجها المنزل أن تُبادر بإغلاقه، لكنها سرعان ما لاحظت أن زوجها يتعمد فتح جهاز التسجيل بعد أن تُغلقه؛ كأنه يُريد إغاظتها، فلم تُنكر عليه هذا التصرف ولم تسأله عن السبب، وأكثر ما أدهشها من تصرفات زوجها، أن يقوم بتشغيل جهاز التسجيل قبل خروجه من البيت لأداء صلاة الفجر.

حدثتْ (صلحانة) نفسها باستغراب عن سبب حب (نصيب) لسماع القرآن من جهازها الخاص، الذي ابتاعه لها، رغم علمها اليقين بأن زوجها يحفظ الكثير من سور القرآن الكريم .. تُكلمُ نفسها بصوت مسموع دون شعور منها، هكذا يكون طبع الإنسان (سواء كان رجلًا أو أمرأة)، كلما تقدم به العمر، تتحول أغلب أفكاره ونواياه الشخصية التي يُريد القيام بها لكلامٍ مسموعٍ لمن حوله، فيستطيع الذي يجلس بقربه أثناء تأدية صلاته السرية أن يسمع كافة أركانها وواجباتها؛ من قراءة للقرآن، ومن دعاءٍ في الركوع والسجود، وربما يَسمعهُ في بعض الأحيان يُحدث نفسه عن مشاكله الخاصة التي واجهته، ثمّ يسمع رأيه في المشاكل التي تعرض لها، ويسمع قراره الذي اتخذه في حل المشاكل والقضايا التي واجهته، وبعض كبار السن يتكلم مع نفسه بحرية تامة وبصوتٍ مسموع، دون شعوره بمن حوله .. كل ظنه أنه وحيد، ولا يظن أبدًا أن في المكان غيره وسوف يسمعه، والبعضُ الآخر يعتقد بأنه يُحدث

نفسه بصوتٍ غير مسموع لأحد، فيأخذه الحماس، ولا يشعر بأنه يتكلم بصوت مرتفع، ومثلُ (صلحانة) التي أصبحت تعيش وحيدة مع زوجها منذ سنوات، تُشاركها الوحدة الموحشة في معظم أوقاتها، دائمًا تنتقد تصرفات بعض جاراتها، فأكثرت الشكوى من جارتها الخطابة أم (عبد الرزاق)، ووصفتها بالمرأة (النسرة) لجشعها، فأم (عبد الرزاق) هي المنافسة الوحيدة لها في سوق (الخطبة) بالحي؛ فقد وقعت قبل يومين بينهما مشادة كلامية، كادت أن تصل للضرب بالأيدي في منزل أم (سليم)؛ لولا تدخل بعض العاقلات من نساء الحي؛ بسبب خطبة أحد أعيان المدينة الأثرياء، الذين دفعوا لأم (عبد الرزاق) مبلغًا كبيرًا مقابل خطبتها لإحدى البنات الجميلات، كانت (صلحانة) تظن أنها الأجدر بهذا المبلغ من المال من الخطابة أم (عبد الرزاق) حسب رؤيتها، فهي تشعر أنها هي من اكتشف (الفتاة)، واقترحت اسمها على أم (عبد الرزاق) قبل فترة. وحرصت (صلحانة) كثيرًا على أن لا يعلم زوجها بهذا الموضوع؛ تمنت أن لا يتسرب الخلاف بينها وبين جارتها أم (عبد الرزاق) للرجال؛ فربما يسمع (نصيب) بهذا الخبر، وقد أمرها سابقًا أن تتوقف عن هذا العمل نهائيًّا؛ نظرًا لما قد يُسبب لهما من مشاكل مع أهل العروسين فيما بعد، فبدأت (صلحانة) تمارس عمل (الخطبة) في السر والخفاء، دون علم زوجها، لكن (نصيبًا) في أحد الأيام فاجأها بسؤال:

- يا (صلحانة) ألم أنهكِ عن العمل كخطابة؟
- نعم، وأنا ملتزمة بما أمرتني به يا أبا (مبارك).
- هذا غير صحيح يا (صلحانة)، في ليلة البارحة أثناء خروجي من الباب لأداء صلاة الفجر قلتِ لي: (بأن الخطابة أم (عبد الرزاق) استولت على أجور الخطبة لوحدها)، وتقولين: (بأنكِ الأجدر منها بمثل هذا المبلغ الكبير، ولقد كنتِ قاب قوسين أو أدنى من اكتمال الخطبة التي ستتم عن طريقكِ)، فلم أرد عليك؛ لأن الوقت كان ضيقًا جدًّا، ولقد كنتِ تتباهين بعمل ما نهيتكِ عنه أمامي، وكأنكِ تتحدينني في هذا الأمر.
- لا .. لم يحدث مثل ذلك أبدًا، ولم أخرج من غرفتي ليلة البارحة، ولم أتبعك عند باب الشارع، وهل رجعنا لأعمال الخرف مرة أخرى يا (نصيب)؟ والآن أريد أن أعرف منك: (سبب تشغيل جهاز التسجيل كلما أغلقته؟).
- من الذي به الخرف يا (صلحانة)؟ أنا أم أنتِ بالله عليكِ؟! كيف أستمع لأشرطة قرآن وأنتِ تعرفين جيدًا بأني أحفظ هذين الجزءين غيبًا؟
- بل ذهبت يا (نصيب) لأبعد من هذا؛ فقد أصبحت تُقلد صوت القارئ عندما أغلق جهاز المسجل.

- هذا غير معقول!! إلى هذه الدرجة وصل الخرف بكِ يا (صلحانة)؟!
- هكذا أنت يا (نصيب) .. تعزو كثيرًا من تصرفاتك التي لا تُريد أن تعترف بها لخرفي، أصبحتَ لا تشعر بأعمالك التي تقوم بها دون شعور منك.

***

(07)

خرجتْ (سحر) من المستشفى على مسؤوليتها الخاصة، بعد أن شعرتْ بضرورة عودتها للمنزل؛ هربًا من أجواء المستشفى المشحون بالكآبة والمرض، رغم عدم تماثلها للشفاء التام .. خرجت من أجل أن تواصل البحث بنفسها عن ابنها المختفي (عامر)؛ فقلبها يُشعرها بأن (عامرًا) حيٌّ يُرزقُ، وموجودٌ في البيت ينتظر عودتها، وقلب الأم عادةً لا يكذب أبدًا، ولكنه عند المحن والمصائب والشدائد قادرٌ على أن يكذبَ على نفسه؛ كي يُبقي خيط الأمل متينًا لا ينقطع، ومثل هذه المشاعر المريضة لا أرغب بها أبدًا، رغم أنها تعني الكثير بالنسبة لصحة عقلها.

مكثتْ (سحر) في المستشفى عدة أيام، نسيتُ في زحمة الحزن والألم كم كان عددها، كانت تعيش خلال هذه الفترة بين حالتي الوعي واللاوعي، يُصاحبهما سبات طويل؛ بفعل أثر الدواء المهدئ (زاناكس)، الذي يُعطى لها عن طريق الوريد دون علمها، نسمع صوت أنين هذيانها الذي لا

ينقطع في حكايات وقصص متداخلة، وغير مفهومة للسامع، وآثار نفسية محطمة، تشعر بأنها منهارة تمامًا ..

تُحاول (سحر) بكل جهدها أن تتمسك بأي بارقة بصيص أمل تلوح بالأفق؛ كي تتماسك نفسيًّا، وتنجو بباقي قواها العقلية والنفسية المنهارة جدًّا .. لقد تراكمت عليها وعلينا جميعًا كافة أنواع التداعيات النفسية، وحطت بغربانها قربنا من كل جانب؛ فقد أصبحنا محطة اجتماعية مكتظة بعطف وحنان ودعاء من حولنا؛ من أفراد المجتمع، ومن أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء، مُحاطين بكرم رعاية مشاعرهم الدافئة لنا واهتمامهم بنا، فمنهم القريب ومنهم البعيد، وكلما حاصر (سحر) شعور بالوعي واليقظة والإفاقة، جلستْ فوق سريرها بمساعدتنا، نُمسك يديها ونُسند لها ظهرها، ونعرف بأنّها تتحامل كثيرًا على صحتها، ثمّ تنظر لمن هم واقفون حولها بنظرة تبدو أشبه بطعنات مدية، تُصيبُ مشاعرهم في الصميم، ثمّ سرعان ما تقرأ ما في عيونهم من أخبار جديدة عن ابنها المُختفي، وعيناها تذرف دمعًا ساخنًا، فتمرُّ بيننا دقائق مشحونة بالتوتر والترقب، فتُحاول أن تنهض من سريرها؛ لكنها تعجز عن القيام، تُخاطبهم بصوتٍ عالٍ مسموع:

- أسألكم بالله، أليس الموت رحمة للعباد؟ ثمّ تُرخي رأسها على الوسادة مرددةً: (ليتني سمعتُ عن (عامر) أنه ميتٌ، ونعرف

مكان قبره، لدعوت الله له بالرحمة ولنا بالصبر والسلوان والأجر، وليس مختفيًا لا نعلم عنه شيئًا؛ فالموت أهون على قلوبنا نحن البشر .. يأتي الموتُ في لحظات رحمة من رب العالمين لعباده، رغم قسوة سماع خبره في بداية إذاعته، إلا أنه يُعتبر نهاية مطاف للألم وللعذاب، رغم أن الموت حق على العباد، ومكروه ذكره، ورغم أنه هادم للذات ومفرق للجماعات، وقاتلٌ لكل الأماني والطموحات. بالله عليكم: ألسنا ندفن في الحفرة مع المقبور كل هموم الألم والحزن والعذاب؟).

ثمّ فجأة ينقطع صوت (سحر) عن البث والاسترسال في حديثها، وتُغمض عينيها، حتى يُخيّل إليّنا أنّها نائمة، فتُشير لنا أمها الخالة (صفيّة) بحركة خفيفة بيدها، نفهم منها أنّها تحثنا فيها على مغادرة غرفتها بهدوء، وتركها لوحدها، فيلف الغُرفة صمتٌ ثقيلٌ، كأنه يقيسُ المسافة بيننا وبين يوم اختفاء (عامر).

وبعد يوم من خروج (سحر) من المستشفى، هربت الخادمة الآسيوية (ليدا)، بعد أن فشلتْ توسلاتها معي في الحصول على موافقة لمغادرتها النهائية، وهكذا تأتي لنا المشاكل والمصائب والابتلاءات كسلسلة مترابطة الحلقات، عندما تتوالى بالجملة تداعيات أحداثها تأتي تباعًا، كأن بعضها يفزع لبعضٍ، وألمٌ يستدرجُ ألمًا، وابتلاءٌ يلحقُ ابتلاءً، كأنها

خرزاتٌ تناسقت في خيط (مسبحة)، تتدحرج خلف بعض بأناقة وهدوء .. حاولتُ أن أشرح للخادمة (ليدا) عدة مرات بأنها ممنوعة من السفر حاليًا، وعليها أن تنتظر حتى انتهاء التحقيق في قضية اختفاء (عامر)، ثمّ السماح لها بالسفر، لكنها خافت من تورطها بالقضية، فلجأت لحضن سفارة بلدها، الذين اتصلوا بنا .. ذهبت لمقر القنصلية، وشرحت لهم ملابسات القضية التي نعيشها، فطلبوا مني السماح لها بالإقامة في السكن المخصص للعمالة الهاربة التابع للسفارة، ريثما يتم الحصول على موافقة من الجهات الأمنية المختصة؛ بخصوص السماح لها بالسفر، فوافقت على طلبهم، ورفضتُ إعطاءهم جواز سفرها، بالرغم من قلة أهميته، طالما أنها في حضن حماية سفارة بلدها .. تمكنت الخادمة (ليدا) من إقناع المسؤولين في سفارة بلدها بعدم قدرتها على النوم والعمل معًا؛ فهي تُعاني من رؤية خيال الخادمة (بِلشا) بصور بشعة تُحاول قتلها .. أصبحت تنتابها كوابيس مفزعة في الليل، وأخبرتهم بأن سيدتها (سحر) تمقتها وتكرهها، وتضع كل اللوم والعتب عليها، وتعتبرها المسؤولة رقم واحد عن كل ما حدث لهم، وتعتبر الذي حصل نوعًا من أنواع الإهمال، ويجب أن تُعاقب عليه الخادمة (ليدا).

الأمرُ مُحيّر لكل التوقعات والتكهنات، وعلامة استفهام كبيرة بالنسبة للدوائر الرسمية التي تُتابع القضية باهتمام منذ بدايتها: فأين

الطفل (عامر)؟ وأين الخادمة (بِلشا)؟، والأهم من هذا وذاك - في عُرف الشريعة الإنسانية، وقبل الخوض في قوالب نصوص القوانين الشرعية والأرضية - علينا أن نسأل: مسؤولية من تأتي لنا خادمة مريضة نفسيًّا مثل (بِلشا)؟ من نُقاضي في مثل هذه الحالة؟ ومن نُحاكم نحن كمستقدمين للخدم؟، لماذا لا تهتم مكاتب استقدام الخدم بالحالة النفسية؟ لماذا لا يكون اهتمام مكاتب الاستقدام بالحالة النفسية جنبًا إلى جنب مع اهتمامهم بالحالة الصحية العامة للخدم؟! أليست الحالة النفسية للخدم جزءًا من الحالة الصحية العامة لهم؟! أليست الحالة النفسية السيّئة للخدم تُعتبر مرضًا، علينا كأفراد مجتمع تجنبه؟ وليتهم يضيفون لشروط استقدام الخدم شرطًا جديدًا، يُلزمون به مكاتب الاستقدام، وليكن: (شرط الحالة التعليمية والثقافية للخدم)، فمن الصعب جدًّا علينا أن تأتي لنا خادمة تجهل كل ما يدور حولها من ثقافة وتقنية معاصرة جديدة، لم تتعرف عليها في حياتها سابقًا، كيف تؤدي خادمة منزلية العمل وتنجزه على أتم وجه في مثل هذه الظروف الصعبة؟ وكيف تتعايش مع محيط كل ما فيه يُعتبر عالمًا جديدًا وغريبًا عليها؟

***

(08)

تردد النقيب (مبارك) بن (نصيب) كثيرًا في قبول تكليفه بمتابعة قضية هروب الخادمة (بِلشا)، واختطافها للطفل (عامر). لقد بذل قصار جهده في الاعتذار من إدارته بشتى الوسائل المتاحة عن هذه المهمة، التي سوف تكون مؤلمة له، والتي ستعيده بقوةٍ إلى ماضٍ يُحاول نسيانه، وقمع كل ما فيه من ذكريات عن أيام طفولته وشبابه، وإزالتها من أرض ذاكرته، و(مبارك) يعلم جيدًا بأنه قد تم اختياره لكونه نشأ في الحي مثار البحث والتحري فيه، لكنه وجد إصرارًا من قبل إدارته على توليه لهذه المهمة؛ نظرًا لمعرفته الجيدة بالحي الشعبي، وتشعبات أزقته الكثيرة؛ لأنه ابن هذا الحي الذي لجأت له الخادمة (بِلشا)، ووقعت فيه تداعيات الحادثة.

لقد ظنت إدارة البحث والتحريات أن معرفة النقيب (مبارك) بالحي ستساعدهم كثيرًا على تعقب أثر (بِلشا)، لكن في حقيقة الأمر أن رؤية إدارته وإصرارها على توليه لمثل هذه المهمة سببت له إزعاجًا كبيرًا؛

لقد أثرت في نفسه التي تُريد العتق من ذكريات هذا المكان وذاك الزمان وتبعاتهما. لقد كره (مبارك) نظرة الإدارة له، بأنه ابن هذا الحي الشعبي (الفقير)، الذي نشأ فيه وترعرع، وعرف حكاياته وأسراره وأزقته ومنافذه، فأصبحت مثل هذه الرؤية له وصمة عار تلاحقه بعد هجره للحي بعدة سنوات، رغم محاولته القاسية لنسيان تفاصيل هوية ذلك الماضي الأليم .. اعتذر عن هذه المهمة هروبًا من ذكريات يئن صداها في صدره، وتعصف بألمها بين قلبه وعقله .. ذكريات صامدة لا تريد أن تتحرك، وتطوي حصير ألمها، وتُغادر لوادي النسيان .. ذكريات متماسكة كصخور الجبال الراسيات .. ذكريات ينتشل بعضها بعضًا من أعماق الذاكرة .. كيف يذهب (مبارك) لذلك الحي من جديد، ويعرف جيدًا بأن والده ووالدته لا زالا يُقيمان بنفس المنزل الذي هجره؟! أيذهب للحي دون التوقف عند منزلهما؛ من أجل السلام عليهما؟! لذا فإن النقيب (مباركًا) بذل جهدًا كبيرًا في الاعتذار عن مهمة تكليفه بهذه القضية.

يومًا بعد يوم، بدأتُ أشعر بأننا نبتعد كثيرًا عن يوم هروب الخادمة (بِلشا)، وعن يوم اختفاء ابني (عامر) .. بدأت حالة اليأس في العثور عليهما تستفحل في قلبي، وتشحن طاقة حالتي النفسية بشحنات سلبية، فأصبحت سريع الغضب لأتفه الأسباب، ووجدتُ عزائي الوحيد في النوم

الحافل بكوابيس تتشابه وتتكرر على وتيرة واحد، مثل كوابيس المحموم.

لم نعثر على أي أثر للخادمة (بِلشا) وابني (عامر)، ولم نجد من يقودنا لمكان أحدهما، وليس أمامنا غير مهمة البحث عن هؤلاء الشباب الثلاثة الذين أتوا بجهاز هاتف (بِلشا)؛ لبيعه على صاحب (البسطة) بسوق (الديرة)، وعادة في مثل حالات جرائم هروب الخادمات واختطاف الأطفال، سرعان ما يُكتشف أمرها، أو على الأقل معرفة مصير الطفل، واكتشاف مكان وجوده، والأمر فعلًا بدا مُحيرًا، ولازمه تحدٍّ كبير لإدارة البحث والتحريات، التي تتحرك بسرعة مذهلة، وتتواصل معنا ليلا ونهارًا، وسؤال كبير يدور في أذهانهم: (أين وضعت (بِلشا) الطفل عامرًا)؟؛ فسائق سيارة الأجرة الذي نقل (بِلشا) للحي الشعبي لم يرَ معها طفلًا، وتبقى الإجابة مجهولة، ولا يجد سؤال رجال إدارة التحري من يستطيع الإجابة عنه؛ مما يؤدي إلى ولادة سلسلة من الاحتمالات التي تدور في خلد جميع أفراد الإدارة المُتابعين لقضية هروب الخادمة (بِلشا) .. يجب إعادة نبشها، وتعقب أثرها واحدًا تلو الآخر، وأول هذه الاحتمالات المتاحة أمامهم، والواجب عليهم طرقها: (أن الخادمة (بِلشا) عند خروجها من البيت تركتْ (عامرًا) في شارع قريب من منزلنا، وجاء من اختطفه!)، لكن السؤال الذي يدور في أذهانهم: (من

يُريد أن يلتزم بمسؤولية طفل لا يعرف من يكون أهله؟ ومن يُريد أن يتحمل أعباء الإشراف على طفل صغير والصبر على رعايته؟) .. فالقضية فعلًا معقدة، وعشرات الظنون والشكوك تتزاحم في عقول رجال البحث والتحريات، الذين تمرسوا على كشف اللثام عن مثل هذه الجرائم البشعة، وكل احتمال ينبثق أثناء جلسات مناقشاتهم وجدالهم يُتابعون مصيره خطوة بخطوةٍ، وبصبر حتى يبلغوا نهايته دون يأس، والنقيب (مبارك)، رغم شدة رفضه في بداية التكليف، إلا أنه أخذ القضية على أنها ذات بُعد عائلي، كما هو واضح من لقائي الأخير معه في مكتبه الخاص، وحديثي الأخوي الودي معه عن والده الطيب (نصيب) .. فلقد أخبرته كيف التقيت به صدفة بدكان (زيد) اليماني، فتعرفت عليه عن قرب، ورأيت شدة تأثر النقيب (مبارك) باختطاف ابني (عامر)، وشاهدتُ في ملامح وجهه مرارة حديثي عن الحي الشعبي، الذي يتجول به الفقر بكل شجاعة وجرأة، وكأنه مرشدٌ سياحي، يأخذ بيد زائره ليطلعه على حالة أمة محمد ﷺ .. رأيت تأثره وامتعاض وجهه بعودته مرة أخرى لهذا الحي الذي هجره منذ سنوات، وعرفتُ إصراره الشديد على عدم الإفصاح لأحد من الناس، سواء كان قريبًا أو بعيدًا عن سر رحيله عن الحي، وهجر منزلهم الذي عاش فيه طفولته .. عرفتُ أن في ظلام دهليز ذاكرته سرًّا كبيرًا لا يُريد أن يُشاركه أحد فيه، يقضم في كل

يوم نتفًا من صحته العامة، كلما تذكر صور والده (نصيب) الجالس أمام أحد مرضاه المصابين بمس الجن؛ ليقوم بعلاجه .. ضاق صدره وانتفضت مسؤوليته الأمنية .. تذكر كيف كان والده (نصيب) يُخاطب الجن باحتراف، وتذكر قناعة والده بعملية تحضير الأرواح، وتذكر اعتكاف والده لعدة أيام في المقبرة، ونومه بين القبور في الليالي الظلماء التي يغيب فيها القمر، وكم مرة حاول (مبارك) منع والده، ناصحًا له بترك مثل هذه الأعمال، في ابتزاز بعض مرضى المسلمين، والنصب عليهم بتعويذات ورقية وقوارير ماء، وعدم الاحتيال على ضعاف النفوس المريضة منهم، الذين كان أكثرهم من النساء، وأكد (مبارك) لوالده أن مثل هذه الأعمال (الخرافية) التي يمارسها بعض المشعوذين والدجالين في منازلهم سرًّا وعلانيةً منافية لكل من الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي معًا، وحاول (مبارك) إقناع والده بأنه الآن أحد حُماة الأمن في البلد، ومُلزم بتطبيق القانون بداية على نفسه، وعلى من حوله من المقربين، حتى لو كان أباه .. خاطب أباه في أحد الأيام محذرًا له: (بأنه الآن أمام أمرين لا ثالث لهما، أما القبض عليه متلبسًا بهذه الأعمال المخالفة للقانون، أو إخبار السلطات الأمنية عنه؛ ومن ثمّ إحالته للتحقيق، وبالتأكيد في كلا الحالتين سيكون مصيره السجن، وهو أمر لا يرغب به لوالده، ولا إلى سمعته الشخصية).

يظن النقيب (مبارك) أن والده لا زال مستمرًّا في غيه وضلاله، بعلاج مرضاه الذين يشتكون من تلبس الجن لهم، ومن شدة إصابتهم بالعين .. فبعض الحوادث عصية على النسيان .. دخل (مبارك) مجلسهم في أحد الأيام، قادمًا من إحدى القُرى التي عُين بمركزها الأمني في بداية توظيفه، فرأى بين يدي والده فتاة في عقدها الثالث، مستسلمة لعلاجه من مرض صرع الجن الذي يصيبها بين فترات متقطعة، يهجم عليها الجن بالذات في الأوقات المتأخرة من الليل، تجلس بالقرب منها امرأة دثرت نفسها بعباءتها، وغطت وجهها كاملًا، سمع والده يُخاطب الجني الذي تَلَبَّسها، ويسأله عن اسمه بداية، ثم يأمره بالخروج من جسدها، ومن نفسها بسرعة، من أي مكان يشاء ويُفضل، قبل أن يستخدم معه وسائل التعذيب والضرب بالعصا، التي كان يهزها أمام وجه الفتاة بين حين وآخر .. شاهد والده كيف يمسح على رأس الفتاة ووجهها بيده، وسمعه يأمر الجني بضرورة خروجه من جسد الفتاة، وهي مستسلمة استسلامًا كاملًا له، ثم رفع والده (العصا) التي كان يحملها بيده للأعلى، مهددًا بها الجني المختبئ بداخلها بضربة شديدة مؤلمة، ثمّ يُعلن عن بداية تنفيذ تعذيبه إن لم يخرج فورًا من هذه النفس الزكية، ولم يسمع (مبارك) في المجلس غير صوت والده الذي يرن صداه بين جدران (المجلس) الأربعة، فانتبه والده لوجود ابنه (مبارك) بملابسه

العسكرية واقفًا عند الباب ينظر إليهم، فانزعج كثيرًا من وجوده، فبدأ يرغي ويزبد بكلام غير مفهوم للجميع، فنهض واتجه إليه، ومسكه من ملابسه العسكرية، ودفعه لخارج المجلس، وهو يُشيّعه بنظرة سوداء مظلمة، وفتح له باب الشارع وطرده من البيت، وأمره بصوت عالٍ بعدم العودة للبيت مرة ثانيةً .. وتذكر النقيب (مبارك) قصة أخيه الصغير (عيد) التي يئن لها قلبه حزنًا وألمًا، كم مرة نهاه عن تعاطي المخدرات وترويجها بين طلاب الجامعة، أمره بالكف عن هذه الأعمال القذرة، أخبره بأنه الآن رجل أمن، سيُطبق عليه القانون، ويجره لمركز مكافحة المخدرات، أو أن يُخبر أفراد هذا الجهاز عنه بالتفصيل لينال الجزاء، لكن أخاه (عيدًا) لم يلتفت لتحذير أخيه الكبير الذي هو (رجل الأمن)، ولم يستمع لنصائحه وتوجيهاته؛ بل وجد نفسه مضطرًّا للهجرة لمدينة أخرى بعيدة عن أهله، ومنها لبلد آخر؛ هروبًا من ملاحقة أخيه له بنصائحه وتحذيراته، مبتعدًا عن وصاية أخيه الكبير وأوامره، وفي ذلك البلد الذي هاجر إليه وجد نهايته مرميًّا في السجن، أما أخوه الأوسط (سعيد) فمنذ أيام شبابه لديه أحلام وردية مجنونة يتطيّرُ بها في خلواته بين فترة وأخرى، لا يُعجبه مجتمعه، ونوع طبيعة عمله في السلك الدبلوماسي حقق له مثل هذه الأحلام الراقدة في عقله منذ أيام الصبا ..

عمل خارج البلاد في قنصلية إحدى سفارات مدن أوربا الشرقية، فتعرف هناك على فتاة شقراء، فعشقها وتزوجها، واستقر في أوربا.

نظرًا لشدة اهتمام النقيب (مبارك) بقضية (بِلشا)، ونظرًا لكثرة تردده اليومي على الحي الشعبي، الذي أعاد الروح لذكرياته القديمة من جديد .. ذكريات ذلك الماضي المدفونة بين زحمة الواجبات الوظيفية والتكاليف الاجتماعية .. لقد كانت تلك الذكريات مثل النار الراقدة تحت الرماد، بحاجةٍ لهبة ريح بسيطة جدًّا؛ ليستيقظ لهب وهجها من جديد من تحت الأنقاض، فسرعان ما تدفقت الدماء في عروق ذكرياته المتيبسة من جديد؛ فتفتحت أزهار الشوق والحنين في قلبه للحديث مع أمه وأبيه، فمنذ أكثر من خمسة أعوام عجاف لم يرَ وجه أحدهما، ولم يُفكر بالاقتراب من منزلهما، ولم يعلما عن خبر زواجه بفتاة مصرية، ولم يُشاهدا طفلته الجميلة (نسرين) ذات الثلاث سنوات، ولم يدخلا سكنه الفخم الجميل، الواقع في أحد الأحياء الجديدة، فسرعان ما دقت طبول العودة لتعزف لحن الشوق لمرتع طفولته .. لقد نهضت ذكريات (مبارك) من غفوتها بعد سباتٍ طويل .. نهضت بقوة عزمها تُلبي نداء القلب المنكسر، وتُلبي نداء الفطرة والمشاعر الإنسانية المتدفقة؛ طالبة منه ضرورة العودة لحضن أمه التي ليس لها ذنب اقترفته، لتنال منه هذه القطيعة وهذا الهجر والجفاء .. إن طرده من البيت حدث بفعل صدام

وقع بينه وبين والده، وأمه وقعت ضحية في فخ هذا التصادم الذي دار بينه وبين والده، بصرف النظر عن (إن كان والده (نصيب) على صواب أو على خطأ)، ومعظم العلاقات الاجتماعية بين الناس قد تمر بفترة خلاف حادٍّ، تؤدي لفتور في التواصل فيما بينهم، وقطيعة في صلة الأرحام، لكن لا تعني أبدًا أنها نهاية مطاف في العلاقة، وبترها من الوجود؛ بل قد تُعتبر من أبسط اختبارات العلاقات الإنسانية الراقية، ومن يُوفي حقوق الوالدين والأهل والأقارب والأصحاب اليوم؟ ومن يحتمل الظلم الواقع على بعضهم؟ ومن يستطيع أن يتفهم عثرات الآخرين ويلتمس لهم الأسباب والأعذار برحابة صدر؟ .. وكل من يُفكر بالقطيعة يجب أن يعلم بأن عودة المياه لمجاريها ليس بالأمر السهل .. بالتأكيد ستكون صعبة جدًّا في بداية مشوار عودة العلاقات؛ فكلما ابتعد الزمن عن يوم إعلان رفع راية القطيعة كلما أصبحت العودة فيها مريضة ومتعثرة .. ليس من السهل أن تُبتر علاقة أُسرية بسهولة، فدائمًا علينا أن نحتفظ بشعرة معاوية في العلاقات العائلية والاجتماعية.

***

(09)

تمكن (مبارك) بصعوبة جدًّا من الانتصار على كبرياء نفسه وهزيمتها، التي دفعته بعنف في طريق العدوانية وقطيعة أهله طيلة تلك الأعوام الماضية .. كل هذه الفترة كان ينظر لوالده بأنه أخطأ بحقه، بطرده من المنزل أمام الغُرباء .. توقف (مبارك) عند باب منزلهم لحظات، وكأنه في مأتم سيدفن فيه جثمان القطيعة على أعتاب منزله القديم .. تردد كثيرًا في طرقه .. نظر لباب منزلهم (الحديدي) الذي عَرَفَ خريطة زخرفته منذ نعومة أظفاره .. لم يتغير في ملامحه شيئًا، غير لونه الذي ذابت زرقته فيه .. لم يعد له لون يُميّزه .. أصبح اللون باهتًا جدًّا؛ بسبب إهمال صيانته .. قرأ بعض العبارات التي كُتبت بالخط العريض على الجدارين المجاورين للباب، وابتسم، وحلقت به ذاكرته بعيدًا، وحطتْ عند أيام طفولته، حين دارت معركة شرسة بينه وبين أحد أبناء الجيران، الذي كتب على جدار منزلهم الخارجي اسم أحد الأندية المشهورة في المدينة، فكسر له أنفه بقبضة كفه؛ ليكون درسًا له وعبرة لغيره من

أطفال الحي، ممن تسول له نفسه كتابة (خربشات) على جدار منزلهم .. بينما استمر (مبارك) وإخوانه بممارسة هوايتهم بالكتابة على الجدران، وتكسير مصابيح الأعمدة والأبواب في الأحياء دون عقاب .. بحث عن زر جرس الباب، فلم يرَ له أثرًا في مكانه المعتاد، كما كان في السابق، بالجهة اليمنى من الباب .. عرف أنهما استغنيا عن جرس الباب؛ كبقية المنازل الأخرى، فلم يعد لجهازي الجرس والإنترفون وكاميراته أهمية بعد ظهور الهواتف الخلوية .. دقَّ على باب منزلهم بقبضة يده اليمنى دقًّا خفيفًا عدة مرات، وهو يعلم بأن الوقت الآن مناسب جدًّا لزيارتهما؛ فوالده في مثل هذا الوقت عادة يكون في المنزل، يستعد نفسيًّا لدخول فترة القيلولة المحببة له، التي لا بد منها مهما كانت الظروف، ويعتبرها والده (نصيب) فرضًا واجبًا لا بد من تأديتها ظهر كل يوم بعد وجبة الغداء مباشرة، بينما ينظر إليها (مبارك) على أنها إدمان غير طبيعي، وعادة متوارثة سيّئة، ومن الأفضل للمرء أن لا يكون له عادة في حياته بصورة عامة، والعم (نصيب) عادة لا يخرج من منزله إلَّا مع وقت أذان العصر؛ لأداء فرض الصلاة مع جماعة المسجد .. سمع النقيب (مبارك) صوت والدته (صلحانة)، الذي لم تتغير نغمته مطلقًا:

- من بالباب؟
- ضيف جائع، ومشتاق لطعام (صلحانة) ..

عرفت (صلحانة) صوت ابنها (مبارك)، ففتحت له الباب بسرعة قبل أن يتراجع عن قرار مجيئه، وهي مسرعة تتخبط بأقدامها غير مصدقة مطلقًا .. عرفتْ قيمة الدعاء والمواظبة عليه دون كلل وملل، خصوصًا في جوف الليل والناس نيام، فمدت له ذراعيها؛ تروم عناق ابنها بين يديها، وهي تصرخ بصوتٍ عالٍ، تستنجد بقوة لحظات فرحتها، وتمسح بطرف (شيلتها) الدموع:

- أقسم بالله العظيم يا (مبارك) أن هذه رؤية حلمي قبل ليلتين، وعندما أخبرتُ والدك عن تفاصيله، قال لي غفر الله لكِ: (ماذا تظنين بنفسك؟ هل أنتِ أحد الأنبياء عليهم السلام؟! هل أنتِ يوسف ابن يعقوب عليهما السلام؟! إني أظنكِ لا زلتِ تعيشين في خرفك القديم يا صلحانة).

لم ينتظرها ابنها (مبارك) تُكمل حديثها عن قصة رؤيتها، فرمى نفسه في حضن أمه .. التصق بها كطفلٍ صغير اشتاق لحضن أمه .. يستنشق من عبق عطر (رائحة الحناء) الذي صبغ لون شعرها، فبادرته بالتقبيل من كل جهة في مواضع وجهه .. تعانقا وهما يكبحان حمم عواطفهما الملتهبة .. كانت (صلحانة) تُحاول بشوق أن تسرد له قصة رؤيتها له قبل ليلتين في المنام، وأنفاسها تتقطع من هول شدة المفاجأة .. حاول (مبارك) أن يتخلص من قبضة حصارها له .. انسل سريعًا بجسمه

للأسفل عند قدميها؛ تقبيلًا لهما .. هبطت هي الأخرى على الأرض معه، تنظر في وجهه جيدًا ودموعها الساخنة تتفجر كينابيع دافئة، تعيش لحظات روحانية ربانية تحسد نفسها عليها .. تتفحصه بنظرة مدققة، غير مصدقة أبدًا ما ترى عيناها من واقع، فنهضت دون مقدمات لوقوفها، وهي تمسح خلسة دمعة سالت من جديد على خدها، ومسكته من يده لتعبر به (دهليز) المنزل الطويل؛ من أجل السلام على والده النائم في غرفته، ومفاجأته بصدق رؤيتها، فطلب منها ابنها (مبارك) التريث، وأن لا تستعجل .. يُفضل أن يذهب لوحده لرؤية والده، وأن تنتظره في (الدهليز)؛ لمناداتها فيما بعد .. ولقد اعتذر لها بسبب رغبته بمفاجأة والده مثلما فاجأها هي، ولكن في حقيقة الأمر لقد خشي (مبارك) على مشاعر والدته من ردة فعل زوجها (نصيب)، الذي لا يعلم عن نوع استقبال والده له، فربما سيكون استقباله سيئًا وغير متوقع منه، فتنهار أعصابها، ويقتلُ (نصيب) فرحتها التي تفتحت أزهارها برؤيته، فبقيت (صلحانة) في ركن (الدهليز)، تنظر لخطوات ابنها البطيئة، وكأنها تحرسها بالدعاء.

توقف (مبارك) فجأة لحظات في قلب باحة المنزل، بعد أن اجتاز ممر الدهليز، كأن شعلة الحماس في نفسه قد انطفأت فجأة؛ بعد أن غلفها الخوف من القادم .. فكر قليلًا: كيف سيكون استقبال والده له؟ هل

سيكون سهلًا وليّنًا مثل استقبال أمه له؟ وماذا سيفعل إذا كان استقبال والده سيئًا وغير متوقع؟ وفي أثناء فترة توقفه القصيرة، وتفكيره من أجل بناء حلول منطقية تكون جاهزة لمواجهة والده إن حدث معه حوار غير مرغوب به ..

تطل (بِلشا) برأسها بتحفظ شديد على باحة منزل (نصيب)، كعادتها في معظم الأوقات؛ تُمارس هواية الاستكشاف بحذر شديد كل حينٍ، فشاهدت (بِلشا) النقيب (مبارك) بملابسه العسكرية واقفًا بوسط الباحة دون حراك، فظنت أنّ الشرطة اكتشفت وجودها، وجاء هذا العسكري للقبض عليها، وتوقف كأنه يُفكر بطريقة سهلة للإمساك بها، دون مقاومتها، ودون هروبها مرة أخرى .. فتسلقت أحد الجدران المشتركة مع الجيران سريعًا دون تفكير، وعبرت جدار منزل (نصيب) الجنوبي، ومنه اتجهت إلى جدار جار آخر، ثمّ تسلقت عدد من جدران المنازل، حتى فاجأها وجود إحدى الخادمات الأفريقيات في أحد سطوح المنازل .. رأتها تنشر الثياب المغسولة حديثًا فوق الحبل الأخضر الممتد بين جدارين .. كانت (بِلشا) في وقتها تلهث وتتسارع دقات قلبها، ولا تعلم كم بيتًا تجاوزت، ولا كم جدارًا تسلقت، ولا كم مسافة عن بيت العم (نصيب) ابتعدت، وعندما شاهدت (بِلشا) الخادمة الأفريقية اطمأن قلبها لها، وتنفست الصعداء، وهدأ روعها، وسرعان ما ذهب

خوفها، وظنت في نفسها بأن الخطر قد زال، ولم تترد الخادمة الأفريقية في استقبالها والترحيب بها، وكأنها ضيفة كانت تنتظر وصولها، بعد أن تحدثت معها عدة كلمات بلغتها، فحكت لها (بِلشا) قصة ملفقة عن واقع هروبها، وخلافها مع ربة المنزل العصبية جدًّا، التي أرادت ضربها، فهربت منها، فعرّفتها (بِلشا) باسمها واسم المنطقة التي جاءت منها في بلدها، ثمّ سألتها عن اسمها:

- اسمي (روز)، وسيدتي أم (سليم) تصرُّ على مناداتي (روزه)؛ وتقول: إن (روز) اسم رجل، و(روزه) اسم امرأة. لا عليك (بِلشا)، سيدتي أم (سليم) امرأة طيبة، وستجد لكِ عملًا مناسبًا قريبًا جدًّا.
- شكرًا لكِ (روزة)؛ لقد نسيتُ أن أحضر حقيبتي معي.
- ماذا في حقيبتك؟ هل فيها أشياء ثمينة ومهمة؟
- فيها فساتين لزواج أختي الصغيرة من أبي.
- وأنتِ متزوجة؟
- لا .. وزواجي أمنية كبيرة في حياتي، لا أعلم إن كان لي نصيب فيه.
- هل والدك متزوج باثنتين؟

- لا .. لقد تزوج بالثانية بعد وفاة أمي - رحمها الله - وأنا بنت الخامسة.
- اذهبي غدًا وأحضريها إن أردتِ.
- كيف؟ .. لا أعرف طريق العودة لذلك البيت.
- متى تُريدين أن أعرفك على سيدتي؟ فهي تعودت أن تستقبل الخادمات الهاربات من بطش ربات البيوت، ثمّ تقوم بتوظيفهنّ حسب رغبات أهل البيوت، عادة تكون في اليوم أو في الشهر، ولأم (سليم) معارفها الكثيرة وزبائنها الخاصين الذين يتعاملون معها.
- ليكن ذلك في صباح الغد يا (روزة) .. عفوًا يا (روز)!!

طرق (مبارك) باب غرفة والده؛ ليستأذن منه بالدخول، فما كان من والده (نصيب) غير هذا الرد الجاف:

- ماذا لديكِ من أخبار جديدة عن الجن والخرف والرؤى والأحلام يا (صلحانة)؟ ادخلي؛ فالباب مفتوح كالعادة .. ما هذا الأدب الرفيع اليوم؟!

دفع النقيب (مبارك) باب الغرفة بهدوء، فشاهد والده مُدثرًا نفسه في فراشه، كعادته في وقت القيلولة، مُخفيًا وجهه كاملًا خلف (شماغه)

الأحمر .. طبعٌ لم يُغيّره منذ أن عرفه .. لا يُرى من وجه والده شيء سوى بؤبؤين مستقرين في قلب عينيه السوداويتين الكبيرتين، مشدودتين إليه بلا حركة، ينظر إلى ابنه فيهما باستغراب .. يردد لأكثر من مرة كلمة واحدة فقط، تلاعب بمخارج حروفها مشروع نوم القيلولة: مبارك .. مبارك .. مبارك .. هل أنا أحلم؟ أم أنّ صاحبة التخريف صَدَقتْ في رؤيتها؟!

- نعم يا أبي أنا ابنك (مبارك)، ولستَ في حلم .. جئتُ أعتذر لكما، وأسلم عليكما .. هل تأذن لي بالدخول؟
- تعال .. تعال .. يا (مبارك).
- أرجوك أن تغفر لي ما قد سلف.
- أغفر لك ماذا؟ وماذا يا (مبارك)؟

فانكب (مبارك) على والده، يُقبل رأسه ويديه، والعم (نصيب) في حالة لا يُحسد عليها مطلقًا من الذهول الذي حاصره حينها من كل جانب .. لا يعلم أين مُتكأ العقل بوقتها؛ ليقف على أرض الحقيقة، هل يُصدق رؤية صاحبة الخرف زوجته (صلحانة)، في المنام التي حكته له قبل يومين، عن رؤيتها لابنها (مبارك)، بأنه كان في الحرم ويطوف حول الكعبة، وَقَبَّلَ الحجر الأسود مرتين؟ أم هل هذا اتفاق سري مبرم بينه وبين أمه، بأن يكون مشروع مصالحته معه يبدأ بحلم كجس نبض؛

لمعرفة ردة فعله تجاه عودة ابنه (مبارك)؟ أم ينهض بقوة عزم الأبوة وشدة حنينها، ويتصالح مع فلذة كبده الذي جاء نادمًا على ما قد سلف من سوء ظنه بأبيه، فتسبب بطرده من المنزل؟

كشف (نصيب) عن وجهه بعد أن أزاح (الشماغ) الأحمر، الذي كان يغطيه كاملًا ما عدى عينيه السوداويتين الفاضحتين لما خلفهما من كلام، واعتدل في جلسته فوق سريره، مسندًا ظهره للجدار، وحرك جسمه المترهل قليلًا لجهة الوسادة؛ ليترك مساحةً كافيةً لجلوس ابنه (مبارك) بقربه، ثمّ نظر في تفاصيل وجه ابنه الجالس في جهة يمينه، نظرة مراجعة حسابات للذاكرة في أوصاف وأشباه ابنه التي يعرفها جيدًا منذ طفولته، فرأى بقايا دموع بزاوية عينيه لم تجف بعد .. لم يجرؤ (نصيب) أن يسأله إن كانت دموع فرح بعودته إليهم أم ندم على مقاطعتهم، ثمّ قال معاتبًا:

- ما كنتُ أظن بأنك يا (مبارك) ستصدق كلمةً خرجت في لحظة غضب عليك، وأنت الذي كُنت السبب في عصف ريحها، فمنذ قبولك في كلية الشرطة وأنت تظن بي سوءًا .. لم يقف وعظك وتهديدك لي عند حد معين .. لقد أصبحتْ مطاردتك لي كأنها أوامر عسكرية مُلزمٌ أنت بتطبيقها وتنفيذها حرفيًّا .. لقد قُلتَ ظنك السيئ بي في وجهي، جهرًا لأكثر من مرة، وتركتك

ترغي وتقول ما يحلو لك ولعقلك وتفكيرك من ظنون سيّئة، ولم أنبس بكلمة واحدة تُعكر مزاجك العسكري، كردة فعل على اتهاماتك. هل تذكر يا (مبارك) عندما قُلتَ لي بملء فمك - دون حياءٍ واعتبار لمقام ومنزلة والدك: (أن ما أقوم به من رقية شرعية هو شعوذة ودجل منافٍ للشريعة الإسلامية والقانون المدني)؟، أليس هذا هو رأيك في والدك؟ أليس هذا هو سوء ظنك في مسألة (الرقية الشرعية) التي أرقي بها كل مرضاي المصابين بأمراض نفسية؟ أنا يا (مبارك) في حينها التزمت الصمت، مستغربًا من أسلوب اتهاماتك لي .. لم أعلق على كلامك .. كنتُ أحاول أن أتجنب مواجهتك العسكرية المندفعة بشتى الوسائل .. كنتُ أتحصّن بالدعاء والهدوء، وألجأ إلى التعقل والتغافل، وبعدم الرد على تلك الافتراءات الصاخبة .. إنك جعلتني أنظر إليك في وقتها، وكأني أمام ما يسمونه في بلدنا بأبناء رموز (الحداثة) و(العلمنة)، الذين يُنكرون علينا بصوتٍ عالٍ (الرقية الشرعية) على وجه العموم، وكأنهم ليسوا من أبناء جلدتنا، دون الخوض معنا في معرفة تفاصيل صحة أدلتها الشرعية والعلمية .. وجدتك يا (مبارك) شابًّا متحمسًا

ومندفعًا، ربما لا تفقه ما سأقوله لك من كلام، لو فتحتُ معك حوارًا بأدلته الشرعية.

- عذرًا يا والدي؛ ليس قصدي سوءًا مما قلتُ، إنما كنتُ خائفًا عليك من عقابين؛ عقاب في الدنيا بشدة حكم القانون وقوة حزمه، والعقاب الآخر الذي لن نسلم منه جميعًا، عقاب رب العالمين في الآخرة.
- لا تخف يا (مبارك)؛ فالحافظ الله سبحانه وتعالى، وعقاب الدنيا أنت أعلم مني بقوانينه وأحكامه، وشدة سوط رجاله؛ أما عقاب الآخرة فأنا بفضل الله لا أعمل إلا بما جاء في كتاب الله الحكيم، وبصحة حديث رسولنا الكريم ﷺ من (رُقية شرعية)، وأنت يا (مبارك) لستَ أعلم مني بأمور ديني، ولستَ أعلم مني في معرفة الالتزام بالقانون الوضعي لأحمي نفسي من سوء عقابكم، ولكنكم قوم تستعجلون كما قيل عنكم، هكذا أنتم يا معشر جيل الشباب اليوم، تتعلمون بعض الأشياء من دفاتر الكليات والجامعات، وتعتقدون بأنكم أصبحتم أعلم من آبائكم وأمهاتكم، وتنظرون لهم نظرة تخلف وجهل ورجعية، ولا تعلمون أنكم ما تعلمتمْ من هذه الحياة إلَّا قراطيس، بينما نحن جيل يحمل خبرة حياة تفوق أعماركم، إن

لم تكن ضعفها، ومحمد ﷺ قال: خير الناس قرني؛ ثمّ الذين يلونهم؛ ثم الذين يلونهم .. إلى آخر الحديث يا (مبارك)، وجيل آبائي وأجدادي أفضل من جيلي وجيلك، وأرجو أن لا تغتر بما تعلمت من علوم دنيويّة وتقنيات معاصرة حديثة.

- عذرًا يا والدي على ما بدر مني من جهل دون علم.
- يا (مبارك)، الآن لن أقول لك إلا كما قالت امرأة العزيز في كتاب الله العزيز: (الآن حصحص الحق ...)، ويجب علي أن أقول لك كل شيء بوضوح تام، فأرخ لي سمعك جيدًا؛ فأنا كل ما أقوم به من علاج للمرضى ليس دجلًا ولا شعوذةً، وليس سحرًا أو تعاملًا مع عناصر الجن كما يدعيه بعض العامة من ذوي النفوس المريضة .. إنما هو رقية شرعية حسب منهج أهل السنة والجماعة، مُعتمدًا فيها على صحيح أقوال المصطفى ﷺ، مما جاء في كتاب الطب النبوي (لابن القيم)، الذي قرأه علينا كاملًا إمام المسجد، وكان في بداية كل درس يقول لنا: سأقرأ لكم من صيدلية محمد ﷺ. يا (مبارك): إن مجتمعنا تجتاحه الأمراض النفسية الكثيرة، وتنخر في صحة أفراده دون شعور منهم، ونحن اليوم بحاجة لمستشفيات أمراض نفسية أكثر من عدد مستشفيات الأمراض العضوية؛ فالمرض النفسي أخطر

من المرض العضوي بكثير، مهما كانت شراسة المرض الثاني وشدة فعله بالمصاب؛ فقوة الإيحاءات النفسية التي يُصدقها المريض أشد فتكًا من الأعراض المصاحبة للأمراض العضوية، والمرض العضوي ظاهرة أعراضه على جسم المريض، نحن جميعًا نستطيع معرفتها، بداية في ارتفاع درجة حرارة الجسم، ثمّ الشعور بالصداع وفقدان الشهية؛ مما يُؤدي لخسارة في وزن الجسم، وغيرها من الأعراض التي تنتاب المصاب بالمرض العضوي، فمن السهل علينا مشاهدة هذه الأعراض وتشخيصها، أما المرض النفسي فأعراضه لا تظهر للمشاهد ولا يمكن اكتشافها .. أمراضٌ خفية منزوية بداخل النفوس، وأهم هذه الأمراض النفسية المنتشرة في المجتمعات الإسلامية مرض الإصابة بالعين، ومرض الإصابة بمس الجن، الشائع انتشارهما بين النساء، فهنّ الموطن الخصب الصالحة بيئته لاحتضانهما؛ فهنّ يعتقدن في حدوثهما بكثرة، لدرجة أن مثل هذه الأمراض أصبحت مركزًا للوسواس عند بعضهنّ، والعياذ بالله، تنفذ من معابرها وسوسة شياطين الإنس والجن بسهولة، وكل مظاهر الوسوسة ناتجة من ضعف الإيمان في النفوس، فتكون نفوسهنّ أرضًا خصبة، يستقر فيها إبليس اللعين وفريقه، ونتيجة ضعف

التوكل على الله سبحانه وتعالى أدى إلى الركون لمثل هذه الوسوسة؛ فكثير من العامة لم يفقهوا قول الباري عز وجل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:51]، ولم يستوعبوا قول الرسول ﷺ: (يا ابن آدم، لو اجتمعت الانس والجن على أنّ يضروك بشيءٍ لم يضروك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله لك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف). ولو بدأنا يا (مبارك) بعالم الجن فنحن - كما تعلم - نعتقد اعتقادًا يقينيًّا جازمًا بأن عالم الجن موجود، وأن الإيمان بوجودهم جزء راسخ في عقيدتنا بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، ولا زلتُ أذكر حديث شيخنا الفاضل (عبد القادر) رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغفر له قبل ربع قرن من الزمان، في هذا المسجد المجاور لمنزلنا، عندما كان مبنيًّا بالطين؛ قبل تجديده، كان يقرأ لجماعة المسجد بعد أذان العشاء، في كل يوم ما تيسر من كتاب (آكام المرجان في غريب الأخبار وأحكام الجان)، لمؤلفه بدر الدين الشبْلي الحنفي، المُتوفّى في عام 769 هجرية، بأن الله سبحانه وتعالى خلق أصل الجن من نار، بينما خلق أصل الأنس من طين، وخلق الجن قبل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بألفي سنة، وأن عالم

الجن هم أول من سكن الأرض قبل البشر، وأن الملائكة الأبرار هم من سكن في السماء، وأن من الجن من هو كافر ومن هو مؤمن، وقرأ لنا شيخنا (عبد القادر) رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزءًا كبيرًا من الكتاب عن عالم الجن، بدءًا من سبب تسميتهم بالجن؛ نظرًا لاستتارهم عن البشر، وقال كل شيء استتر عنك فقد جن عنك، وجن الليل أي أظلم، وسُمي الطفل في بطن أمه بالجنين لاستتاره عنا، وقرأ لنا شيخنا من الكتاب أبوابًا كثيرةً، لا زلت أذكر أكثرها بالنص، مع تعقيبات شيخنا الفاضل (الوافية الشافية) لكل سؤال أُثير في الدرس .. تكلم بإسهاب عن سكنهم وأكلهم وطريقة تزاوجهم، وأنواع أصنافهم الثلاثة (صنف على صور الحيات، وصنف على صور كلاب سود، وصنف ريح طيارة)، وحكى لنا عن طُرق تشكلهم؛ في صور الإنس وصور البهائم، وأكد لنا شيخنا (عبد القادر) رَحِمَهُ ٱللَّهُ على عدم قدرتنا البشرية المحدودة على رؤيتهم والحديث معهم، لكن بعض العامة - هداهم الله - نسبوا إصابة الإنسان ببعض الأمراض العقلية والعضوية نتيجةً لإصابته بمس الجن، أو لإصابته بشر العين التي لم تذكر الله سبحانه، فأصبح خوفهم من الجن وتلبسهم، وخوفهم من شر العين وقوة تأثيرها على الإنسان

حديث مجالسهم، وأكثر من توكلهم على من بيده الضر والنفع، فكثرت الروايات غير الصحيحة والمكذوبة عن هاتين الآفتين، وانتشرت بين العامة من الناس، لدرجة أن خوف بعضهم منهما غدا أشدَّ خوفًا من الله سبحانه وتعالى - والعياذ بالله - فظنوا أن بعض حالات الأمراض النفسية والعقلية التي شاهدوها في حياتهم، ما هي إلَّا نتيجة تلبس الجن لهم، وتلبس الجن للإنس حق لا اختلاف فيه، ولا جدال عليه، لكن يا (مبارك) لم يرد عن رسول الله ﷺ أن البشر باستطاعتهم مخاطبة الجن، مثلما يفعل بعض دعاة من يتعامل مع المصاب بالمس، ولم يرد أن للبشر القدرة على سماع كلام الجن والحديث معهم، باستثناء ما جاء لنا عن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الكتاب الحكيم، عندما خاطبه عفريت من الجن في مجلسه، وقال له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل:39]، والمأثور بعلاج الإصابة بالمس هو الرقية الشرعية، أما عن مسألة انتشار الإصابة بالعين والحسد في مجتمعنا، فحدث ولا حرج يا (مبارك) .. والعين كلنا نقرُّ بأنها حق، وفيها أدلة شرعية من الكتاب الحكيم والسنة النبوية المطهرة، ولا زالت قصة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أبنائه ماثلة أمام العالم، يستقون منها عبرًا ودروسًا في كل يوم، عندما قال لأبنائه:

﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ ...﴾ [يوسف:67] ؛ لكن بعض العامة - هداهم الله - بالغوا بحدوث الإصابة بالعين والحسد والجن والسحر، وتجاوز خوف بعضهم منها الحدود الشرعية، الواجب على المسلم الالتزام بها، فرأوا أن أي فشل أو تعثر أو إخفاق في الحياة، أو أي إصابة بمرض قد يتعرض له الإنسان في مسيرة حياته الصحية، ينسبونه للإصابة بهذه الأمراض الشائعة؛ بل أصبح بعضهم مريضًا نفسيًّا فعلًا؛ بسبب كثرة طلبه للرُقية من أي إنسان يلتقي به، ويظن فيه الورع والتقوى والصلاح، فتُشاهده دائمًا يُردد في كلامه مع الجالس معه: (قل ما شاء الله .. قل لا حول ولا قوة إلَّا بالله)، سواء كان في مناسبة أو في غير مناسبة، ولو استعان مثل هذا المريض نفسيًّا بآية (الكرسي) أو بدعاء (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء)، أو (قل لن يصيبنا إلَّا ما كتب الله لنا)، لكفى نفسه مؤنة السؤال وطلب الرُقية.

وأظنك يا (مبارك) رأيتني أرقي الشابة المصابة بالمرض النفسي .. لقد كُنتَ واقفًا عند الباب تنظر إلي بازدراء، وتغلي غيظًا .. هذه الشابة أتت بها أمها للمرة الثالثة؛ في المرة الأولى قالت لي أمها إن ابنتها مصابة بالعين .. رقصت كثيرًا في حفلة عرس

صديقتها (حنان)، ولا أعلم من تكون صديقتها (حنان) .. لم تتوقف عن الرقص في تلك الليلة .. كانت فرحة بزواج صديقتها فنسيت نفسها، لم تشعر ابنتي بأن الأنظار كانت تتهامس حولها، وحول جمال خصرها وتناسق جسمها (دون أن تذكر الله)، ومن بعد حفلة تلك الليلة أصبحت قليلة النوم، ويتصبب جسمها عرقًا كثيرًا، فقرأت عليها ما تيسر من أدعية شرعية أحفظها، وبعد مرور شهر كامل أتت بها لي للمرة الثانية؛ تشكو من ازدياد مرضها، وقالت: (اشتد عليها مرضها، وتعبنا من علاجها الطبي، وتعبت هي من تناول الأدوية الكثيرة)، فزدتُ لها في جرعة الرقية، مكررًا لها نفس الأدعية؛ لأشعرها باهتمامي بمرضها، وقرأت لها في قارورة ماء كبيرة؛ لتشرب منها وتغسل وجهها يوميًّا؛ لعل أن يكون فيه شفاء بإذن الله .. وفي المرة الثالثة التي رأيتني فيها أضع يدي على رأسها؛ جاءت الأم مع ابنتها لتُخبرني: (أن ابنتها مصابة بمس الجن؛ فهي تقوم أثناء الليل وتُحدث نفسها، وتطلب منهم تنفيذ أشياء غريبة) .. لم تفصح لي أمها عن ماهية هذه الأشياء الغريبة التي تطلبها منهم، ولم أسألها لمعرفة تفاصيلها .. حاولتُ أن أثنيها عن ظنها بمس ابنتها الجن، لكنها أصرت، فعرفت أن

البيت مصابٌ بهوس الأمراض النفسية، فمثلتُ لهما أني أطرد شيطانًا من الجن عن نفسها، وفي الواقع أني لم أعمل لها غير الرقية الشرعية، وعندما رأيتك واقفًا عند الباب بزيك العسكري، تسترق السمع دون استئذان، انزعجت من تصرفك هذا كثيرًا، وطردتك في وقتها. ومجتمعك الفاضل يا (مبارك) اتهمني بتحضير الأرواح؛ بسبب كثرة زيارتي للمقبرة في أثناء الليل والنهار، بينما أنا أذهب إليها مقتديًا بحديث الرسول ﷺ، الذي قال فيه: (كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، ثمّ بدا لي أنه يرق القلب، ويدمع العين، ويُذكر الآخرة، فزورها ولا تقولوا هجرًا). لم أمارس عملية تحضير الأرواح في يوم من الأيام، ولا أعرف شيئًا عن هذا العلم الفاسد، المنهي عنه شرعًا.

- عفوًا والدي: ما سر نومك بالمقبرة بين القبور؟
- يا (مبارك): رجاءً لا تُمارس عملك الوظيفي عندما تتحدث إلى الناس .. اخلع ثوب التحقيقات عندما تكون بعيدًا عن ميدان العمل .. لا تخلط بين أوقات عملك وبين ساعات حياتك الخاصة .. لا تتعود أن تُحقق مع الناس وكأنك في مكتب بحث وتحريات .. ليكن أسلوبك في الحياة مختلفًا عن نمط أسلوب حديثك في العمل .. افصل بين الاثنين، واجعل بينهما

جدارًا، وهل أنت رأيتني بعينك في أحد الأيام نائمًا بين القبور كما تدعي؟

- كلا .. ولكن هذا ما يُشاع عنك بين الأهل والأقارب.
- هل أنتم في قسم البحث والتحري والتحقيقات تأخذون بأقوال ما يُدلي به الناس من كلام كشهود دون التحقق؟
- كلا .. نتأكد من هذه الأقوال في مهمة تحرٍّ وتحقيقات ميدانية مع كل المعنيين في القضية؛ من أجل مطابقة القول مع الحدث الذي سمعناه. ولكنك يا والدي كنتَ تغيب عن البيت لعدة أيام متتالية .. كنا نظنك معتكفًا بالمقبرة، وتنام بين حفر القبور كما يقول الناس عنك.
- هل سألت أنت وإخوانك في يوم ما: أين أنا في فترة غيابي عن المنزل؟ هل كلفتم أنفسكم وتأكدتم بأن والدكم في المقبرة؟ وهل أقوال الناس دليل وحجة في شريعتكم وقانونكم؟
- كلا .. من أدبنا معك يا والدي أن لا نسألك أين كُنت؟ ولماذا تأخرت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ أنت من علمنا هذا الأدب وهذا الخُلق معك، ومع غيرك من الناس.
- أجل؛ اسمع يا (مبارك) ما سأقول لك، وليكن هذا بيني وبينك، وأرجو أن لا تتسرب رائحة حديثي لمكتب تحقيقاتك

وقراطيس تحرياتكم وتحركاتكم .. أنا أذهب كل شهرين تقريبًا في (رحلة دعوة) مع إخوان لي في (محبة الله) .. لا أعرف من هم؛ من أجل نشر الدعوة إلى الله، نُسافر إلى إحدى القُرى، أو أحد البلدان البعيدة لعدة أيام .. لا نبتغي من هذه الرحلة غير وجه الله ورضاه، والأجر والثواب من عنده .. نحن نخرج لنحث الناس على حسن العبادة، والمداومة على الصلاة؛ فالصلاة عمود الدين، من أقامها فقد أقام الإسلام، يستضيفنا أحد الإخوة الأفاضل بتلك القرية أو البلدة لعدة أيام .. ندخل الأسواق ونذهب للمساجد، نختلط مع أفراد المجتمع في الأماكن العامة، نذكرهم بما نحفظ من رقائق بأدب حسن العبادة، ونُقدم لهم عدة محاضرات في المساجد، دينيّة روحانية، تتخللها بعض الدروس العلمية الخفيفة، تحث الناس على فعل الخيرات وترك الموبقات، ونُوزع بعض الكُتيبات الدعوية الصغيرة التي يكتبها بعض مشايخنا الثقات، ومثل هذه الرحلات تكون عادة خالصة لوجه الله تعالى، لا نُريد فيها رياءً ولا سمعة بين الخلق؛ فلذا اتخذت دعوتنا طابع النشاط غير المعلن.

***

(10)

تطلبُ (بِلشا) من (روز) قلم رصاص وقرطاس، فمنذ هروبها من منزلنا لم تُتح لها فرصة ممارسة هواية (الرسم) المحببة لقلبها، فتُلبي لها طلبها برحابة صدر، وفي خلال دقائق قليلة تمكنتْ (بِلشا) من رسم وجه امرأة عجوز .. تعجبت (روز) كثيرًا من دقة تفاصيل رسمتها بعد اكتمال عملها، فملامحها قريبة جدًّا من وجه جارتهم (صلحانة) .. الصديقة الحنونة لأم (سليم)، فكيف تعرّفت (بِلشا) على دقة أشباه وجه (صلحانة)؟ رغم أنها تعلم جيدًا بأن الخالة (صلحانة) ليس لديهم (خادمة) منزلية، فخلقت (بِلشا) لنفسها حرجًا دون قصدٍ منها .. لقد كانت في غنى عن وضع نفسها بمثل هذا المأزق السيئ، وهذه المشكلة الخطرة عليها، وتبدأ (بِلشا) سريعًا في البحث عن تبرير لمعالجة هذه الورطة التي خلقتها بنفسها، وتُحاول ترميمها بأي عذر، فلم تجد لنفسها تبريرًا غير أن تقول: (إن الخالة (صلحانة) كانت تزور سيدتها كل يوم تقريبًا، كما تفعل مع زيارتها لأم سليم)، ويُعتبر مثل العذر مقبولًا

بالنسبة لروز؛ نظرًا لمعرفتها بقوة التواصل الاجتماعي للخالة (صلحانة)، وحينها اكتشفت (روز) إبداع (بِلشا) في ممارسة هوايتها المحببة لها في الرسم، وقبلها عرفت (روز) عن دقة (بِلشا) في تقليدها لجميع الأصوات التي حولها؛ فقد أتعبتها ليلة كاملة؛ بحثًا عن من يطرق عليهما الباب، فكلما ذهبت (روز) لتشاهد من عند باب الغرفة المغلقة لا تجد أحدًا، فتعود أدراجها لتندس بفراشها مرة أخرى، لكن (روز) تسمع صوت الطرق على الباب من جديد، وتسمع خلفه صوت رجل خافت جدًّا يُنادي باسمها: (روز)، فخافت (روز) وأيقظت (بِلشا) من نومها؛ لتتأكد معها من هذا الرجل الذي يُنادي عليها من خلف الباب، لكنهما لم يجدا أحدًا خلفه. وفي إحدى الليالي سمعتْ (روز) صوت قطة تموء داخل الغرفة، بحثتْ عنها في كل مكان بالغرفة، فلم تجد لها أثرًا، فظنت أنها بالخارج، وكلما غفت (روز) سمعت صوت القطة تموء جوعًا من جديد؛ مما اضطرها أن تطلب من (بِلشا) البحث معها عن القطة، وخلقت (بِلشا) خلال بضعة أيام مشاكل كثيرة للخادمة (روز)، فبدأت (روز) تسمع صوت أم (سليم) تُناديها، وتطلب منها عمل أمر معين، وعندما تقوم بتنفيذه تسألها أم (سليم) لم فعلتِ كذا وكذا؟ فتستغرب (روز) من سيدتها أم (سليم)؛ تأمرها بفعل أشياء، ثمّ تستنكر عليها بفعل هذه الأشياء التي طلبت منها عملها قبل دقائق!! فظنت (روز) أن هذا هو داء

الخرف الذي يُصيب الإنسان، وأخيرًا قد حط رحاله في عقل سيدتها أم (سليم)، وتذكرت حديث الخالة (صلحانة) لسيدتها عن خرف زوجها العم (نصيب)، وعن الدواء الشعبي الذي يتناوله لعلاجه من داء الخرف، واقتنعت (روز) أخيرًا بأن الخرف مرض فيروسي، ينتقل بين الناس بالعدوى، وأن هذا الحي موبوء بفيروس الخرف المُعدي.

تُودع (بِلشا) كل من أم (سليم) وصديقتها (روز) بسلام حار، على أمل التواصل فيما بينهم مستقبلًا، وكل منهما تدعو لها بالتوفيق في عملها الجديد، بعد أن تلقت (بِلشا) وجبة ساخنة من تعليمات أم (سليم)؛ للعمل بموجب بنودها في أحد منازل الأثرياء لمدة ثلاثة أيام كفترة تجريبيّة، وكان شرطهم إن وجدوها مناسبة سوف تستمر معهم بقية أيام الشهر، ثمّ الشهر الذي يليه، خرجت (بِلشا) من منزل أم (سليم) كيوم ولدتها أمها، لا تحمل معها شيئًا غير الثياب التي تسترها .. لقد أعطتها أم (سليم) عباءة سوداء ذاب بريق لونها من كثرة غسيلها، مستعملة تآكلت بعض أطرافها؛ بسبب زحفها فوق الأرض، وبرقعًا استغنت عنه قبل فترة، وكان مُعدًّا للفقراء، وشددت أم (سليم) على (بلشة) عدم رفع نقابها وكشف وجهها في الطريق، دلفت في المقعد الخلفي من السيارة خلف السائق مباشرة، بعد أن سمعت جزءًا من حديث أم (سليم) وهي تُخاطب في هاتفها الخلوي أحد النساء في الطرف

الآخر، وتقول لها: يا أم (معاني) إن الخادمة (بِلشا) الآن في طريقها إليكم مع سائقنا الهندي؛ فإن لم ترغبوا في خدماتها ولم تُعجبكم اتصلي علي لإرسال السائق ليُعيدها إلينا.

استقرت (بِلشا) في جلستها دون سلام على السائق، الذي كان ينظر إليها في المرآة التي أمامه نظرة فاحصة، كأنه يُريد أن يتعرف على كومة هذا السواد، وتذكرت (بِلشا) النقاط المهمة التي كررتها عليها الخالة أم (سليم)، وعليها الالتزام بها حرفيًّا. لا تعلم إلى أين يقودها هذا السائق الهندي، لكنها عرفتْ بأنه يُتابع تعليمات خرائط (قوقل) بلغته الخاصة التي لا تفهم منها شيئًا .. لقد حذرتها أم (سليم) من الحديث مع السائق، ومع غيره من الرجال في طريقها. وفور وصول السائق لأحد المنازل الكبيرة، توقفت السيارة قرب الباب الكبير .. ترجل السائق من السيارة، وضغط على زر (الإنتركوم) .. سمعت (بِلشا) السائق بكل وضوح يتحدث باللغة العربية (الهندية) مع سيدة، ويُخبرها عن وصول الخادمة، وسرعان ما فُتح باب (المنزل)، وطلت منه برأسها خادمة آسيوية باللباس (الموحد) للخادمات، بلون أزرق مُشجر، كاشفة شعر رأسها القصير، يتدلى فوق صدرها سلسال ذهبي خفيف، بنهايته قطعة ذهب صغيرة، ففرحت كثيرًا بقدوم الخادمة (بِلشا)؛ لتساعدها في أعمال المنزل الكثيرة .. قادتها الخادمة التي اسمها (ريتا) إلى سيدتها أم (معاني)،

التي كانت تنتظرها، عبر ممر رخامي طويل بلون أبيض، يؤدي لصالة (المنزل) الرئيسية .. رحبت بها سيدة المنزل، وطلبت منها اتباع تعليمات الخادمة (ريتا) بحذافيرها، وعدم مخالفتها في أي أمر، وطلبت منها الجد والاجتهاد في العمل، أو ستضطر أن تُعيدها من حيث أتت وبدون مرتب، فعرفت (بِلشا) أن اسم الخادمة الآسيوية (ريتا).

بدأت (بِلشا) حياتها الجديدة، رحلة رقم (4) في مسيرة غربتها، شتاتٌ لا يعرف الرحمة والشفقة، وأيامٌ تتشابه في كل شيء كنسخ كربونية من صورة واحدة .. قررت أن تبدأ بشيء من المصالحة الذاتية مع نفسها المكتوية بنار الاعتداءات الجسدية والنفسية؛ فهي حقًّا من يستحق المصالحة .. لم تكن (بِلشا) تعلم بأنها ستكون أمام مواجهة شرسة مرة أخرى مع الخادمات الآسيويات، بدأت وعزيمتها العقلية والجسدية يدفعانها للنشاط والحيوية من جديد، معاهدة نفسها على إثبات براءتها من الاعتداء على الآخرين، وعدم التهور مرة أخرى؛ لكي لا تسقط من جديد بنفس الخطأ الذي ارتكبته في المرة السابقة، إلى أن يحين موعد سفرها بطريقة شرعية أو غير شرعية لبلدها، وعاهدت نفسها على أن لا تتحرش بأحدٍ؛ لا من قريب ولا من بعيد .. أعلنتها توبة نصوحة مع نفسها، شريطة أن لا يُؤذيها أحد ممن حولها بكراهية أو عدوانية، وعرفتْ بأن العداوة فن، وهي لا تُجيدها، رغم أن بعضهم

يُحاول دائمًا زجها في ميدانها، وعاهدتْ نفسها على الالتزام بالعمل بجدٍّ ونشاط وإخلاص، وأن لا ترى منها سيدتها الجديدة أم (معاني) غير العمل الجيد، وفور وصولها سلمتها أم (معاني) بدلتين مستعملتين من اللباس (الموحد) للخادمات، باللون الأزرق المشجر، وطلبت منها الالتزام بهذا (الزي) في غير أوقات النوم، ففرحت (بِلشا) به؛ لأنه مماثل لزي الخادمة الآسيوية، واعتبرت هذه الخطوة بداية موفقة لمعاملة متساوية.

***

(11)

عادت (بِلشا) مرة أخرى لحياة الغرفة المشتركة مع خادمة آسيوية، وكأن شيئًا في حياتها لم يتغير أبدًا، والفرق الوحيد بين الحياتين، أنها لا تملك سريرًا للنوم في غرفتها المشتركة، بينما الخادمة الآسيوية (ريتا) ترقد فوق سرير .. وعدتها أم (معاني) بشراء سرير جديد لها قريبًا، وأن هذا الوضع سيكون بصورة مؤقتة لها، وعليها أن تتحمل لفترة كم يوم .. مضت عدة أيام بهدوء تام دون أن تُسجل (بِلشا) مشاكل مع أحد، وكل الذي أزعجها وأقلق نومها سماعها صوت اهتزاز هاتف (ريتا) المزعج، وهو يئن بصوتٍ خافتٍ حزين، ثمّ يعقبه مباشرة صوت حركة سريرها الحديدي أثناء جلوسها، وصرير باب غرفتهما أثناء خروجها في آخر الليل، بالرغم من حرص (ريتا) الشديد على أن لا تُسبب إزعاجًا لها .. لقد حاولت (بِلشا) كثيرًا أن تربط بين توقيت صوت اهتزاز هاتف (ريتا) وبين وقت خروجها من الغرفة .. لقد كان كل ظنها في بداية الأمر: (أنها تخرج من الغرفة للرد على مكالمة هاتفية، بعيدًا عن

إزعاجها بصوتها المرتفع)، لكنها تستغرب من تأخر (ريتا) كثيرًا بالعودة لمرقدها، فقررت معرفة ما يجري من أمور تُغرد حولها، فسعت جاهدة في محاولة لاكتشاف هذا السر، وفي إحدى الليالي سمعت صوت اهتزاز هاتف (ريتا)، بينما كانت (ريتا) تغط في نوم عميق، لم تنتبه لصوت اهتزازه، وبعد عدة محاولات من طرف المتصل بها، انتبهت (ريتا) لهزات هاتفها المزعجة، الذي كان مركونًا قرب رأسها، فنهضت بهدوء؛ كي لا تشعر (بِلشا) بصوت حركة سريرها أثناء جلوسها، وبعد أكثر من ربع ساعة من خروجها من الغرفة، طرقتْ (بِلشا) باب دورة المياه المغلق؛ المجاور لباب غرفتهما؛ لتتأكد من وجود (ريتا) بداخلها، فلم ترد عليها؛ مما اضطرها أن تدفع الباب؛ لتتأكد من وجودها بداخل دورة المياه، فاندهشت لعدم وجودها؛ مما زاد في حيرتها، وجعلها أمام تحدٍّ كبير لمعرفة (أين تذهب (ريتا) في خلال هذه الفترة من الليل)؟ و(ريتا) تعلم جيدًا بأن سيدتها أم (معاني) أمرتهما قبل عدة أيام بعدم النزول في آخر الليل للدور الأرضي، ولقد سبق لأم (معاني) أن حذرت (بِلشا)، وكانت (ريتا) واقفة تسمع كلامها الذي كان موجهًا للاثنتين معًا، عندما علمت عن نزول (بِلشا) في آخر الليل، وما كان عذرها غير: (أن تشرب الماء البارد من الثلاجة)، وبعد أكثر من ساعة عادت (ريتا) أدراجها للغرفة منتعشة، بفرحةٍ وسعادة تبتسم من عينيها لا من شفتيها في وجه (بِلشا)

بكل وقاحةٍ، غير مبالية بنظراتها التفتيشية الفاحصة لها، بينما كانت (بِلشا) جالسة بوسط مرقدها تنتظر عودتها، تنظر إليها بنظرة متباطئة، صعدت بها من أخمص قدميها حتى قمة شعر رأسها المنفوش، ولم تتمكن من سؤالها: أين قضت ساعات الليل؟؛ فنظرات (ريتا) لها بعينين سوداويتين مطرزتين بالكحل، تغشاهما شفتان محمرتان، تُحذرها من فتح فمها بكلمة واحدة.

وفي الليلة التي تلتها قررت (بِلشا) أن تتعقب أثر (ريتا)؛ لمعرفة أين تذهب في ساعات الليل، فتصنعت النوم، وبعد دقيقتين من خروجها من الغرفة، لحقت بها دون علمها .. لم تشعر (ريتا) بمن يسير خلفها ويتابعها، فرأتها (بِلشا) تدخل المطبخ، فاختبأت سريعًا خلف عمود بقلب صالة المنزل، زُرع بالخطأ، وبقي شاهدًا على عيوب المقاولين في زمن (الغفلة) .. وقفت (بِلشا) تنتظر خروجها من المطبخ، وظنت أنها كانت جائعة، أو تُريد أن تشرب الماء البارد، مثلما حصل معها من قبل عدة أيام، فطال انتظارها مختبئة خلف العمود، فسئمت طول فترة بقائها واقفةً، فلم تجد من وسيلة لنهاية هذا الانتظار الممل القاتل غير اقتحام باب المطبخ عليها، وفعلت (بِلشا) ما كانت تنويه من تصرف، ففُوجئت بعدم وجودها، وتوقعت أنها خرجت من باب المطبخ الخلفي، الذي رأته بالفعل مفتوحًا، فخرجت (بلشا) منه كذلك؛ تبحث عنها في باحة

(الفيلا) الكبيرة، فدفعت باب مجلس الرجال الخارجي، فوجدته مقفولًا، وعند مرورها بالقرب من باب الشارع الصغير رأته مواربًا، فعرفت أن (ريتا) قد خرجت منه، ولا تعلم إلى أين ذهبت في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل!! فعادت (بِلشا) أدراجها لغرفتهما؛ تنتظر عودت (ريتا) كالعادة، وقُبيل الفجر بعدة دقائق دفعت (ريتا) باب الغرفة برجلها، لتدخل ولسان حالها يُدندن بمقطع كلمات أغنية غربية، لم تفهم (بِلشا) منها كلمة، وتنظر إليها بعدم اهتمام.

ارتفع حماس (بلشا) لمعرفة هذا السر، وصممت بقوة على اكتشافه قريبًا، وأصبح بالنسبة لها مهمة، ونوعًا من أنواع التحدي، وهكذا الإنسان دائمًا وأبدًا، يستهويه (المجهول) ويعشقه بدرجة كبيرة، ويُريد دائمًا التفوق عليه، والوصول إلى قاع أسراره؛ بل ربما يفضله على ما بين يديه من أشياء متاحة ومتوفرة، فتبعتها (بِلشا) مرة أخرى في الليلة التالية دون أن تشعر (ريتا) بمن يسير خلفها .. سارت بخفةٍ وهدوءٍ، وكأنها شُرطيٌ حريصٌ على أداء مهمته بأن لا يدع المتهم يفلت من رقابته الصارمة، فرأتها تطرق باب سائقهم الآسيوي (بابُل)، بعد خروجها من باب (الفيلا) الصغير، القريب من غرفة السائق؛ ليفتح لها الباب، فتدخل لغرفته، ثم تعود لغرفتها قبيل أذان الفجر كعادتها، دون افتضاح أمرها من أحد.

يدخل السائق (بابُل) كل يوم للمرآب الكبير الملتصق بجدار غرفته؛ من أجل غسيل السيارتين، وسقاية الحديقة، والاعتناء بها، وهذه المهمة كلفهُ بها (أبو معاني)، فتعرفت عليه (بِلشا) من خلال النظرات من بعيد بداية، وعادة ما تكون هي بدايات المشوار (وابتدأ المشوار)، ثمّ تلتها ابتسامات خاطفة رقيقة، وكلمات جريئة من كلا الجانبين، فشعر كل منهما بلين الجانب للآخر وشدة رغبته بالتعارف والتعرف عليه عن قرب، فتم لهما ما أرادا من لقاءات .. عرفت (بِلشا) أوقات دخوله للمرآب، فكانت تتصنع لنفسها الأعذار من أجل خروجها لباحة (الفيلا) للقاء (بابُل) .. طلبت منه بداية شراء بعض الدهون والكريمات النسائية لها؛ كجس نبض لتجاوبه مع طلباتها القادمة، ثمّ تلتها بعد هذا الطلب بعدة أيام طلبها الثاني؛ لشراء هاتف خلوي مع شريحة لها، فاستلم منها المبلغ دون ممانعة، وسألها عن الهوية الشخصية لها، فأخبرته بأن سيدتها أم (سليم) تحتفظ بها في الحي الشعبي البعيد من هنا، فوافق على شراء الشريحة والهاتف لها، مستخدمًا بطاقته الشخصية، ففرحت كثيرًا وشكرته ودعت له.

وفور استلامها للهاتف الخلوي تواصلت سريعًا مع خالتها (جميلة)، التي أخبرتها بأن رجال الشرطة جاءوا لمنزلها يبحثون عنها، وطلبت منها عدم التواصل معها مرة أخرى؛ لأن جهازها مُراقب من قبل إدارة الأمن

.. طلبت (بِلشا) من خالتها مساعدتها في الهروب والعودة لبلدها، فوعدتها خيرًا، وسوف تتواصل معها عن طريق هذا الرقم عندما تجد من يقوم بمثل هذه المهمة، رغم أن الساحل مراقب إليكترونيًّا، ثم تواصلت (بِلشا) مع الخادمة (روز)، وحكت لها كثيرًا عن أسرار (الفيلا) التي تعيش بها، وعن سكانها، وعن الخادمة الآسيوية السيّئة (ريتا).

يومًا بعد يوم تتطور العلاقات بين كل من الخادمة (بِلشا) والسائق (بابُل)، وتحولت إلى لقاءات حب وعشق وغرام، بعيدًا جدًّا عن أنظار الخادمة (ريتا)، لكنها سرعان ما اكتشفت غيابها، وشعرت بعلاقتها مع حبيبها (بابُل)، فحذرتها من التواصل مع الرجال الغرباء من مزارعين وسائقين، وأنها ستضطر أن تُخبر سيدتها أم (معاني) عنها، ولم يكن للخادمة (بِلشا) من عذر لها غير قولها بأنها طلبت منه شراء جهاز هاتف خلوي وشريحة لها. وكتمت غيظ الانتقام منها في صدرها، وبدأت تُخطط بشر، وتُعد العدة للانتقام منها شر انتقام، طالما أنها هي من بدأت بالشر، وهددتها بإخبار صاحبة المنزل عنها، وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء ذات البرد القارص الشديد البرودة، وبعد خروج (ريتا) من غرفتهما كعادتها لزيارة (بابُل)، وكان في نيتها وضع حد فاصل لعلاقة حبيبها (بابُل) بالخادمة الأفريقية (بِلشا)، فتبعتها (بِلشا) دون علمها، وأغلقت باب الشارع خلفها بعد خروجها، ثمّ أغلقت باب المطبخ

الخارجي من الداخل، وعند عودة (ريتا) من سهرتها بعد نهاية فصل غرامي ساخن مع (بابُل) وجدت باب الشارع مُغلقًا، فظنت أن تيار الهواء البارد جدًّا قد أغلقه بعد خروجها، فطلبت من (بابُل) أن يفتح لها باب المرآب بجهاز (الريموت) لتدخل منه، لكنها اكتشفت أن باب المطبخ الخارجي مغلق أيضًا، عندها عرفت بأن هذا كيد وتدبير من الخبيثة الأفريقية (بِلشا)، فبقيت محجوزة في باحة (الفيلا) تنتظر بزوغ نور الفجر، ترتجف بردًا، كأنها (عصفورٌ) محبوسٌ في قفص مدلى من السقف، تواصل تنقلها من بابٍ إلى بابٍ آخر، مرسلة تغريدها بصوتٍ مرتفعٍ؛ لعل أحدًا في الداخل يسمعُ نداء استغاثتها، تنتظر أحدًا يتكرم عليها بخروجه ليفتح لها الباب الرئيسي أو الجانبي، فاستغربت الدكتورة (معاني) من وجودها في الباحة بمثل هذا الوقت المبكر، والجو بارد جدًّا، فاكتفت بأن نظرت إليها من خلال عدستي نظارتها الطبية المستقرة على منبت أنفها بأناقة، ولم تسألها، ولم تفتح معها محضر تحقيق عن سبب وجودها في باحة (الفيلا) بساعات الفجر الأولى، وأخبرت أمها بعد عودتها من العمل بما شاهدت من ملامح غريبة على وجه الخادمة (ريتا) عند ذهابها للعمل صباحًا، فسألت أم (معاني) الخادمة (ريتا) عن سبب وجودها في باحة (الفيلا) ليلة البارحة؟ فما كان عُذرها غير أنها لا تعلم كيف انغلق الباب، لكن أم (معاني) ظنت من إجابتها سوءًا، فأخبرت

زوجها بما حصل، ففتح معها تحقيقًا طويلًا، ولم يقتنع بتبريراتها، وظنها كاذبة فيما قالت من تبرير، فقرر ترحيلها، لكن أم (معاني) طلبت منه التريث لما بعد الانتهاء من مراسم حفل عقد مهر ابنتهم الكبيرة الدكتورة (معاني) في نهاية الأسبوع القادم.

بدأت المشاكل تتفاقم بين الخادمتين، واشتعلت الحرب الباردة بينهما، كل منهما تتربص بالأخرى، وتُريد أن تقتص منها، فبدأت (ريتا) تُعد كمينًا للخادمة (بِلشا)، وتَعدُ نفسها بأنها لن تنجو منه أبدًا، وسوف تُعيدها من حيث أتت، وفي نفس الوقت فزعت (بِلشا) بقوة لممارسة خبراتها السابقة، ونسيت كل عهود التوبة ومواثيق الاستقامة التي قطعتها على نفسها .. انطلقت تُمارس هوايتها المحببة لها بتقليد الأصوات؛ للإيقاع بالخادمة (ريتا)؛ من أجل سرعة ترحيلها لديارها، فقد سمعت أم (معاني) صوت (ريتا) لأكثر من مرة، وهي تشتمها بكلام قبيح أثناء مرورها قرب باب المطبخ، وعندما دفعت الباب ودخلت عليها وواجهتها بكلامها، أنكرت ما قالت عنها، وأقسمت لها أنها لم تتفوه بمثل هذا الكلام عنها، وفي أكثر من مرة تدخل (ريتا) مجلس النساء وتقف صامتة بجانب سيدتها أم (معاني) لتلبية طلبها، وتظنها أم (معاني) تتعمد مثل هذا الحضور لتسمع طرفًا من حديثهم، فتسألها:

- ماذا تُريدين يا (ريتا)؟

- أنتِ من طلبني يا سيدتي.

فتصرخ أم (معاني) بوجهها أمام ضيوفها:

- اخرجي من هنا حالًا، لم أطلبك، ولن أطلبك أبدًا.

* * *

(12)

أخيرًا قرر العم (نصيب) بيع أثاث المحل المستعمل المركون في غرفة الملحق العلوي، ويأتي باثنين من العمال الباكستانيين؛ لمساعدته في تنزيل الأثاث، ووضعه في صندوق (البيك أب)، فيكتشف وجود مرقد الخادمة (بِلشا)، المكون من (بطانيتين) ووسادة وبقايا أكل متعفن، وحقيبة ملابس ذات لون أحمر، فيحملها مع (البطانيتين) مسرعًا؛ ليسأل (صلحانة) عن هذه الأشياء، وما قصتها؟ ومن يرقد في غرفة الملحق العلوي؟ فتستغرب وتُنكر معرفتها، وتقول له بأنها فقدت هذه (البطانيات) منذ شهرين، ولا تعلم من الذي أخذها لغرفة الملحق العلوي، فاتهمها زوجها بعودة الخرف لها من جديد، بعد أن منّ الله عليها بالشفاء منه، وتُبادر (صلحانة) باتهام زوجها بخدمة أصحابه الجن، وأنه يُهيئ لأصاحبه الجن الراحة التامة في غرفة الملحق العلوي، ويشتد الخلاف بين الاثنين من جديد، بعد أن هدأ صراعه منذ هروب الخادمة (بِلشا) من منزلهما، في وسط ذهول واستغراب العمال من شدة

خلافهما، أثناء نقلهم لقطع الأثاث لسيارة (البيك أب)، ولا ينتهي هذا الخلاف إلَّا بتوعد كل منهما للآخر، فيطلب (نصيب) من زوجته عدم لمس الحقيبة، وعدم فتحها؛ فهما لا يعلمان ما بداخلها، وينتظران قدوم ابنهما (مبارك)، الذي سيأتي بعد صلاة المغرب، كعادته يشرب القهوة معهما ومع أفراد عائلته.

ومضت ساعات الظهر والعصر الطويلة وقتها، و(نصيب) و(صلحانة) ينتظران بشوقٍ ولهفةٍ دخول ابنهما (مبارك) لمعرفة سر الحقيبة، وفي لحظة دخوله يتسابق الاثنان على إخباره عن وجود الحقيبة الحمراء والمرقد، وبقايا الأكل في غرفة الملحق العلوي، فيطلب (مبارك) منهما رؤية الحقيبة، فيباشر بفتحها أمامهما، فاستغرب كل من (صلحانة) وزوجها مما شاهدا بداخلها؛ من فساتين نسائية وبعض (الإكسسوارات)، ومجموعة من صور صغيرة موضوعة بكيس نايلون شفاف، لنساء ورجال أشكالهم تُوحي للرائي بأنهم من الأفارقة، فميّز ابنهما (مبارك) بسرعة صورة الخادمة (بِلشا) من بين مجموعة الصور، فسألهم (مبارك):

- كيف وصلت لكم هذه الحقيبة؟

- لا نعلم، وجدناها في غرفة الملحق العلوي المهجور منذ شهور بين الأثاث .. شاهدتُ أحد العمال يرفعها ويضعها بصندوق (البيك أب)، فاستوقفته وطلبت منه إعادتها.
- علينا أن نأخذ الحقيبة لإدارة البحث والتحريات؛ لمعرفة أثر البصمات التي فوقها؛ للتأكد بأنها حقيبة (بِلشا).

فسأله والده مستغربًا:

- من يكون هذا (بِلشا) يا (مبارك)؟
- إنها خادمة مجرمة، وهاربة منذ فترة نبحث عنها يا أبي .. هذه خادمة صديقك (عبد المجيد)، هل تذكره؟ لقد خطفت ابنه (عامرًا) وهربت، ولا نعلم حتى هذا اليوم أين هو وماذا فعلت به، والآن أريد أن أرى الملحق العلوي.

وسرعان ما امتلأ الملحق العلوي في منزل العم (نصيب) برجال خبراء البصمات؛ لاستكشاف أدلة إضافية جديدة عن الخادمة الهاربة (بِلشا)، ورفع أثر البصمات من الموقع، وتتبع كل الخيوط الممكنة للقبض عليها؛ فرجال إدارة البحث والتحريات يعتقدون جازمين بأن (بِلشا) بعد هروبها من منزل سيدها في حي الشمال جاءت للحي الشعبي مباشرة، ولم تخرج من الحي بتاتًا؛ بدليل أنهم وجدوا حقيبتها في منزل العم (نصيب)، رغم أن بيانات شريحة هاتف (بِلشا) سجل يوم هروبها

وصولها لمنطقة تقع في غرب المدينة، فربما تكون (بِلشا) قد باعت جهاز هاتفها الخلوي مع شريحته في الحي الشعبي، وهذا أحد الاحتمالات الواردة، والشخص الذي ابتاع هاتفها قام بنقله لغرب المدينة؛ لأجل بيعه هناك، ولدى الإدارة شعور كبير بأن إحدى الخادمات الأفريقيات في الحي تعرف أين (بِلشا) الآن؛ لذا وجب على إدارة (البحث والتحريات) استجواب الخادمات الأفريقيات المقيمات بالحي الشعبي، وسؤالهنّ عن الخادمة (بِلشا).

سأل مبارك أمه (صلحانة) أثناء زيارته لها في اليوم التالي لعثورهم على الحقيبة الحمراء عن أسماء الخادمات المجاورات لمنزلهم، إن كانت تعرفهنّ، وعن من لديه خادمة أفريقية من الجيران؟ فعددت له عدة بيوت فيها خادمات أفريقيات، ثم انتقدت هذه البيوت؛ فقالت له:

- رغم دخلهم المحدود وإمكاناتهم المادية الضعيفة إلَّا أنهم لم يستغنوا عن الخدم في بيوتهم.

كأن (صلحانة) تُريد أن تُفضفض عن ما في قلبها من مشاعر ضد تصرفات والده (نصيب)، الذي تقاعس عن إحضار خادمة؛ لمساعدتها في أعمال المنزل مثلهنّ، حتى لو كانت خادمة (هندية)، ومن بين هؤلاء البيوت التي عددتها له والدته، الذين لديهم خادمات أفريقيات منزل صديقتها الودودة أم (سليم)، ثم سأل أمه مرة أخرى إن كانت تعرف

جارتهم (جميلة)، فأخبرته بأن هذه (الشمطاء) اسم على غير مسمى في وصف الجمال، فأخبرته بأنها تعرفها، وتعرف منزلها، ولا تقبل أحدًا من الجيران أن يزورها في منزلها، ولم تلتقِ معهنّ في مجالسهنّ في يوم ما، ودائمًا تعتذر منهنّ عن المشاركة والحضور .. تعمل في الليل والنّهار كأنها نملة سوداء، لا تتوقف أبدًا عن جمع بقايا الأكل، مقر عملها بسوق (الديرة) .. لديها (بسطة) خشبية صغيرة تضعها فوق الرصيف .. يتسلط عليها وعلى غيرها ممن يبسطن معها بالشارع مراقب البلدية، و(جميلة) تعرف من بينهنّ كيف تتعامل مع المراقبين جيدًا، في بعض الأحيان أكلفها بطلبات خاصة لبعض نساء الحي من سوق (الديرة)؛ فتأتي لي بها بسرعة، يقول عنها بعض نساء الحي: (كانت خادمة في أحد القصور الكبيرة بالمدينة أيام شبابها، ويُقال عنها - كذلك - إنها هربت من القصر بعد أن تعرفت على الشاب (إلياس)، الذي أحبها ثمّ تزوجها فيما بعد).

- ما شاء الله عليك يا أم (مبارك)، تعرفين عن أهالي الحي أكثر من جهاز الأمن في المدينة.
- أجل اعتمد توظيفي عندكم .. لقد قبلت الوظيفة، بأن أكون مخبرة سرية في الحي لكم.

- هل تعرفين أحدًا من الجيران الملاصق جدارهم لجدار منزلنا، لديهم خادمة أفريقية؟
- كل الجيران الملاصقين لجدارنا لديهم خادمات، ما عدى المغلوبة على أمرها والدتك (صلحانة)، التي رفض زوجها أن يستقدم لها خادمة تُعينها على خدمات المنزل الكثيرة، فبعض خادمات الجيران أفريقيات، والبعض الآخر خادمات آسيويات. فمثلًا أعرف منزل أم (سمحان) في طرف الشارع لديهم خادمة أفريقية، جاءت لهم قبل عدة شهور، في بعض الأحيان تؤجرها بالساعة؛ للعمل في بيوت الجيران إذا لم يكن لديها واجب تقوم به، وأعرف أم (سليم)، لديهم خادمة أفريقية كذلك اسمها (روز)، تصنع معها (المعمول) اللذيذ؛ لتبيعه وترتزق من ورائه.
- أي البيوت أقرب لمنزلنا من جهة جدار السقف؟
- منزل أم (سليم) أقربهم لنا منزلة في القلب، ولكن منزلهم يقع في الشارع الذي خلف شارعنا، وبيننا وبينهم عدة بيوت، ولماذا تسأل يا (مبارك)؟
- مجرد توقعات واحتمالات، قد تخدمنا في البحث عن الخادمة الأفريقية الهاربة، هل ممكن أن تتصلي بصديقتكِ أم (سليم)؛ من أجل مرافقتكِ لزيارتها؟

- وماذا سأقول لجارتنا يا (مبارك)؟ هل أقول لها: بأن ابني (مباركًا) سوف يأتي للتحقيق معكِ؟ رجاء اعذرني من هذه المهمة البوليسية؛ فهذه صديقتي الوفية؛ وعزيزة على قلبي جدًّا.
- يا أمي، من مصلحة صديقتكِ المفضلة لديكِ وجارتكِ العزيزة عليكِ أن تتواصلي معها، وتستأذنين منها من أجل زيارتنا لها، بدلًا من أن نأتي لمنزلهم رسميًّا بسيارة عسكرية، وكل أبناء الحي سوف يعلمون بقدومنا إليهم، أو أن يأتي لها أمرٌ من مركز الشرطة بطلبها مع زوجها للتحقيق معهما، وفتح لهما ملف دسم في أفواه أبناء الحي، فيلوكون حولهم الإشاعات الكاذبة، ويؤلفون عنهم ألف حكاية وحكاية.
- يا ابني افعل ما تشاء، وما يحلو لك، لكن اعذرني وأبعدني عن مهمة التواصل هاتفيًّا معها بهذا الخصوص، واعفني من شرها وطول لسانها، وأتمنى عليك أن تترك مهمة التحقيق معها لغيرك يا (مبارك)، وأرجو أن لا تكن في الواجهة بقضية التحقيقات معها، أحذرك من أم (سليم)؛ فلسانها حادٌّ وأخلاقها سيّئة، فربما تُصيبك بأقذع الشتائم، فأم (سليم) من النوع إذا أحبتك صعدت بك للسماء، وجمعت لك كل الناس، ولو كرهتك مسحت بك الأرض، وقلبت عليك كل الخَلق.

- حسنًا يا أم (مبارك)، سأترك هذه المهمة لغيري كي يتولاها، وسأكون في الظل بعيدًا عنها؛ مراعاة لمشاعركِ، ولكن هاتي وصف كل المنازل التي يُوجد فيها خادمات أفريقيات.

اقتنعت (صلحانة) بكلام ابنها، فزودته بأسماء وعناوين المنازل المجاورة لهم، الذين لديهم خادمات أفريقيات، وكان على رأس القائمة منزل أم (سليم)، فقرر النقيب (مبارك) أن تبدأ رحلة هذه التحقيقات من منزل صديقة والدته المدعوة بأم (سليم)، فكلف الملازم (سُهيل) بهذه المهمة .. شابٌّ في العقد الثالث من عمره، تشعر بحماسه لخدمة الوطن والمواطن، وأرسل معه عسكري برتبة عريف، وأمره أن يذهب لهم بعد صلاة العشاء، حينما يتأكد من دخول العم أبو (سليم) لمنزله، وبعد أن حط الظلام رحاله بهدوء في (النافذ) الضيق، ضغط الملازم (سُهيل) على زر جرس باب منزل أبي (سليم)، الذي نهضت حوله العتمة بكامل عزمها؛ لعدم وجود إضاءة حول باب منزلهم؛ بفعل عبث أطفال الحي بتكسير معظم مصابيح أزقة الحي.

اختار الملازم (سُهيل) الوقت الذي تضعف به الرؤية في أزقة الحي، ويكادُ ينعدم سير الأقدام في (النافذ)؛ مراعاة لوضع أهل المنزل من كلام الجيران حولهم في مسالة (القيل والقال)، عندما يشاهدون رجال الشرطة وهم يرصفون سيارتهم العسكرية قرب باب منزلهم، فسألت

(روز) من خلف الباب: (من الطارق؟)، وسرعان ما عرفت بأنهما يطلبان سيدها أبا (سليم)، وفي خلال دقائق قليلة جدًّا خرج لهما أبو (سليم) بثوب النوم، حليق اللحية وبدون شنب، يميل جسمه للبدانة قليلًا، يدعمه كرش مترهل، يهتز قليلًا في أثناء مشيته، وقد تجاوز الخمسين من عمره، استطاع الزمن أن يسرق الكثير من حيويّته ونشاطه وقوته، ويمنحه بدلًا منها كآبة ترتسم على صفحة وجهه، كاشفًا شعر رأسه المكتمل بياضه .. عرّفه الملازم (سُهيل) بنفسه، وأخبره بأنه قادم بمهمة خاصة من مكتب قسم (البحث والتحريات)؛ من أجل حمايتهم، ثمّ شهر له بطاقته الأمنية الخاصة، وسلمه خطابًا رسميًّا موجهًا له شخصيًّا؛ ليقرأه ثمّ يُعيده، وفحواه أن يأذن لهما بتفتيش منزله والتحقيق معهم، فبادرهما أبو (سليم) بالسؤال مستغربًا:

- عسى ما شر؟
- مجرد تحقيق بسيط من أجل حمايتكم.
- حمايتنا من ماذا؟ والحامي هو الله وحده سبحانه وتعالى.
- أبا (سليم): لو سمحت، أرجو منك إحضار كل من في البيت هنا بهذا المجلس.
- ليس عندنا غير زوجتي أم (سليم) والخادمة (روز).
- وغيرها من الخادمات؟

- لا يوجد عندنا غير الخادمة الأفريقية (روز)، والذي زودكم بمعلومات غير صحيحة عنا لا يخاف الله سبحانه، والله حسيبه في الدنيا والآخرة.
- لا تخف .. مجرد تحقيقات عادية جدًّا، يخص أمنكم، ونريد بداية رؤية هوية الخادمة (روز) الشخصية، أو جواز سفرها لو سمحت.
- أبشر..

لفت نظر الملازم (سُهيل) كثرة اللوحات التراثية المعلقة على جدار المجلس، حتى كاد أن يختفي لون الجدار من كثرتها .. عُلقت على جدران المجلس الأربعة بعناية وإحكام، مع مراعاة انعكاس الضوء الساقط عليها من السقف المستعار، وشغلتْ هذه اللوحات الرائعة حيزًا من وقته، علمًا بأن الملازم (سُهيل) لا يفقه من الرسم شيئًا، ولم يهتم بإبداعاته في يوم من الأيام، ولا يعلم عن أسماء مدارس الفن شيئًا؛ لتقيّم مثل هذه اللوحات المعلقة، ومعرفة لأي مدرسة من المدارس تنتمي، وتوقف الملازم (سُهيل) عند إحداهنّ، عُلقت في صدر المجلس، يُحدق بتفاصيلها .. فرآها عبارة عن بقايا خيمة بدوية ممزقة ومهجورة، بداخلها جمجمة بشرية محطمة، عبثت بها رمال الصحراء، فبعثرت أجزاءها، واستغرب الملازم (سُهيل) كثيرًا من قطع التُراثيات القديمة

الموزعة في أنحاء مساحة المجلس ذي (الجلسة الأرضية)؛ مما يدل للوهلة الأولى عند الدخول لهذا المجلس بأنه متحف للفن والتراث القديم، وليس مكانًا للجلسة العربية التُراثية.

حضر للمجلس كل من أم (سليم)، التي دثرت نفسها بالعباءة، وغطت وجهها بالبرقع، والخادمة (روز)، التي لفت جسمها بالعباءة السوداء، وأخفت وجهها بالبرقع كذلك، فطلب الملازم (سُهيل) من الخادمة (روز) أن تكشف عن وجهها؛ لمطابقة أوصافها مع بطاقة الهوية، فرفضت (روز)، وهي تنظر لكل من أبي (سليم) وأم (سليم)، وكأنها تتلقى التعليمات منهما مباشرة، فطلب منها أبو (سليم) كشف وجهها، طالما هما في مهمة رسمية، فكشفت وجهها، فدقق الملازم (سُهيل) بوجهها مع الصور الصغيرة التي كان يحملها بيده، ومع بطاقة هويتها الشخصية، ثمّ أعاد الصورة الصغيرة لجيبه. وطلب من العسكري تفتيش غرف المنزل برفقة أم (سليم)، وأن لا ينسى تصوير كل ما تلتقط عيناه. فتسألُ أم (سليم) العسكري الذي ترافقه في مهمة تفتيش منزلها، الذي يسير خلفها بهدوء من غرفة لغرفة: (عن ماذا هم تبحثون؟)، فلا يرد على سؤالها، وكأنه لم يسمعها، وبعد انتهائه من تفتيش كل غرف المنزل طلب منها رؤية غرفة الملحق العلوي، وفيها شاهد مرقدين؛ أحدهما مطوي، ثمّ عاد لغرفة المجلس، يهمس في أذن الملازم (سُهيل)

عن ما شاهده في الغرف، وعن تقديره للمسافة التي تفصلهم عن منزل (نصيب)، وعن ارتفاع الجدران المشتركة بين منازل الجيران، فرفع الملازم (سُهيل) حاجبه وهو يسمع كلام العسكري؛ ليوهمهم باكتشاف أمر ما؛ لعلهم يتجاوبون مع أسئلته بسهولةٍ، ويُدلون بما يُخفون.

طلب الملازم (سُهيل) من أبي (سليم) التحقيق معه أولًا، فأخرج الاثنين لخارج المجلس، وتركهما بحراسة العسكري ..

- أبا (سليم): هل لديكم خادمة أخرى غير (روز)؟
- لا .. ومن قال لك نحن وكر للخدم؟!
- ليس المهم من قال لنا، لكن المهم أن نعرف من ينام معها في غرفة الملحق العلوي؟
- لا أحد ينام معها؛ ترقد الخادمة (روز) وحدها.
- سمعنا أن لديكم أكثر من خادمة في المنزل، فكيف تتمكن من الإنفاق عليهنّ؟
- هذا غير صحيح، لدينا خادمة واحدة فقط، وأم (سليم) تقوم بتصنيع (المعمول) وحدها مع (روز)، ثمّ تبيعه، وفي حالة حاجتها لعمل كمية كبيرة تستأجر بعض خادمات الجيران؛ لمساعدتها لعدة ساعات، مقابل أتعابهنّ.

- كم تدفع أم (سليم) لهنّ في الساعة؟
- لا أعلم ..
- هل تعرف بعض أسمائهنّ؟
- لا .. ليس لي علاقة بهنّ، واسأل خالتك أم (سليم) عن أسمائهنّ، وعن كم تدفع لهنّ.
- هل تعرف (بِلشا)؟
- ومن يكون هذا (بِلشا)؟
- خادمة هاربة، خطفت طفلًا صغيرًا عمره لا يتجاوز السنة، نبحث عنها، وسيدها خصص مكافأة مالية كبيرة لمن يتعاون معنا ويدلنا عليها.
- صدقني .. أنا توقعت أن (بِلشا) اسم لرجل وليس لامرأة، ولو سمعت عنها لما ترددت عن إخباركم، وأخذت المكافأة منكم، ولكن لماذا تأتي الخادمة الهاربة إلى هنا؟! لماذا يكون أبناء هذه الأحياء الفقيرة موقع شبهة لأعمال تخريبية، يقوم بها أبناء الأحياء الغنية؟! لماذا نكون نحن الفقراء دائمًا هدفًا للمجرمين والمدمنين والعابثين بأمن المواطن والوطن؟!

- حسنًا أبا (سليم) يكفي ما سمعته منك، سوف أستجوب الخالة أم (سليم)، ومن بعدها (روز)، ولو اختلف كلامهما عن كلامك سوف تتعرض للحبس والتوقيف؛ بسبب تضليلك للمعلومات، إلَّا إذا أردت أن تُغير من اقوالك شيئًا قبل خروجك الآن من المجلس.
- لحظة بالله عليك يا (سُهيل): ما قصدك من هذا التهديد؟ ما قصدك من (الحبس والتوقيف)؟ أنت سألتني وأنا أجبتك عن ما أعرفه، ولو سألتهما نفس الأسئلة واختلفت إجاباتهما عن اجاباتي فخذهما للحبس معك؛ لأني لا أعلم غير الذي قلته لك.
- حسنًا .. سنرى قريبًا أبا (سليم)، ورجاءً لا ترفع صوتك، وتفضل لخارج المجلس .. سوف أستدعي الخالة أم (سليم)، بعد إذنك الآن.

خرج أبو (سليم) منزعجًا قليلًا من التحقيق الذي أجراه معه الملازم (سُهيل) بمجلسه .. ينظر لزوجته أم (سليم) بعينين غريبتين؛ كأن بهما كلامًا للتهديد والوعيد .. لم يفهم نظرته أحد غيرها، تعني عندها هذه النظرات الحارقة أشياء كثيرة .. كلامًا لا يفهم حدوده سواها .. ويطلب أبو (سليم) من زوجته أن تذهب للمجلس، فالملازم (سُهيل) ينتظرها

للتحقيق معها .. دلفت أم (سليم) لمجلسها، وشعرت كأنها ضيفة فيه، وكأنها لأول مرة تدخله، وليس مجلسها الذي عرفته منذ سنوات طويلة، وليست هي صاحبته وجامعة مكوناته التراثية، تدعو الله بينها وبين نفسها متضرعة: (بأنهما لم يأتيَا بسيارة شرطة، ولم يشاهدهما أحد من أبناء الحي بملابسهما العسكرية) أثناء دخولهما لمنزلها؛ فأم (سليم) تعلم جيدًا عن نوادر وطرائف فاكهة مجالسهم في الحي (وما سوف يُقال عنهم) .. لأول مرة تشعر أم (سليم) بغربة موحشة في أركان مجلسها .. جلست في الجهة المقابلة للملازم (سُهيل)، الذي استهل حديثه بالاعتذار الشديد منها على مثل هذه الزيارة غير المناسبة، فسألته إن كان يسمح لها بعمل فنجان قهوة أو كأس شاي، فشكرها واعتذر، وقال لها:

- نحن في مهمة عمل، جزاك الله خيرًا.

ثمّ أطلق الملازم (سُهيل) سربَ أسئلته المعدة سابقًا دون مقدمات، وبشكل مفاجئ لها وبصوتٍ عالٍ لإدخال الرهبة في نفسها، وكأنها أمام اتهامات موجهة شخصيًّا لها؛ من أجل استفزازها ومباغتتها، ولخبطة جميع أوراقها التي أعدتها مسبقًا:

- يا أم (سليم) .. هل أنتِ خطابة في الحي؟
- لا .. وخطابات الحي المشهورات هما: أم النقيب (مبارك)، وأم (عبد الرزاق).

- هل أنتِ دلالة في الحي؟
- ما قصدك بدلالة؟
- تبيعين وتشترين في الحي، فمثلًا تقومين بشراء الذهب وتبيعينه، أو تشترين ما يخص النساء من سوق الديرة، ثمّ تقومين ببيعه على نساء الحي.
- لا .. وهذا عمل اختصت به جارتنا أم النقيب (مبارك).
- إذًا ماذا تفعلين لمساعدة زوجك؟
- وهل من الواجب على الزوجة أن تعمل لمساعدة زوجها؟ أعتقد أنها مسؤوليته وعليه تحملها.
- كم عندك من الأبناء؟
- ليس لنا أبناء؟
- إذن (سليم) هذا؛ ابن من؟
- (سليم) اسم والد زوجي (صبحي).
- هل العقم فيك أم في أبي (سليم)؟
- وما دخل مثل هذا السؤال الشخصي بتحقيقاتك؟ وبالرغم من ذلك سأجيبك عنه، فالعقم ليس مني وليس من زوجي أبي

(سليم)، لكن الله لم يقسم لنا الذرية .. هل أقنعك هذا الجواب؟

- يا أم (سليم)، عرفتُ أنكِ تصنعين (المعمول) بالتمر وبالجوز، هل هذا صحيح؟
- نعم .. وهل في هذا الأمر منع أو غرابة؟
- إذًا كيف تقولين بأنك لا تساعدين زوجك أبا (سليم)؟
- ومن قال لك إن دخل هذا العمل لي أو لمساعدة زوجي في مصروف البيت؟
- لا أحد .. ولكن هذا هو المفروض الذي يجب أن يكون، وأنا من يوجه الأسئلة لكِ يا أم (سليم)، وأنتِ من يُجيب عنها جزاك الله خيرًا.
- كلا .. هذا غير صحيح، أنا أصنع أنواع (المعمول) وريعه لمصلحة دار رعاية الأيتام .. نبيع جزءًا منه لنشتري بقيمته التمر والدقيق والسمن والجوز، أما الجزء الباقي من (المعمول) نأخذه لدار رعاية الأيتام.
- هل تصنعين (المعمول) لوحدك مع (روز)، أم تستعينين بأحدٍ لمساعدتك؟

- يتعاون معي بعض محبي الخير من الجارات، بإرسال خادماتهنّ، جزاهنّ الله خيرًا.
- كم تدفعين لهنّ بالساعة الواحدة؟
- لا أدفع لهنّ بنظام عدد الساعات، ولا أدفع لهنّ القيمة نقدًا .. إنما أعطيهنّ على قدر كمية إنتاجهنّ من المعمول، وهنّ يتصرفن في المعمول.
- هل عملت معك خادمة أفريقية اسمها: (بِلشا)؟
- لم أسمع بهذا الاسم من قبل، وبعضهنّ لا أعرف أسماءهنّ.
- هل تعمل معك خادمات أفريقيات؟
- نعم .. وغير أفريقيات كذلك.

فور انتهاء الملازم (سُهيل) من التحقيق مع أم (سليم) فتح باب المجلس، وطلب من العسكري أن يأتي بمن معه للمجلس للتحقيق مع الخادمة (روز) أمامهما، وسماع أقوالها؛ لرؤية ردود أفعالهم على إجاباتها .. وعندما جلس الجميع أمامه صفًّا واحدًا، بادر الخادمة (روز) بالسؤال الذي أراده أن يكون مدخلًا للصمت الغريب الذي حل بينهم، وربما أراد الملازم (سُهيل) أن يكتشف معرفتها باللغة العربية:

- ما اسمك؟

- (روز)، وسيدتي أم (سليم) تُناديني (روزة).
- هل تعرفين ماذا تعني (روز) باللغة العربية؟
- نعم أعلم .. زهرة أو وردة.
- (روز) ليس فقط زهرة أو وردة؛ بل تعني عند العرب بداية الحياة ونشأتها، تعني عند العرب المرأة التي لا تخدع ولا تكذب ولا تخون أبدًا في حياتها؛ ولهذا فإن المرأة تعشق (الروز)؛ لأنه من جنسها، وأفضل ما يُقدم للمرأة هدية في المناسبات (الروز) بكافة ألوانه وأحجامه.
- وهذا الذي قلته عن (الروز) كله (أنا) .. فأنا (روز)، واسأل عني العم أبا (سليم) والخالة أم (سليم).
- منذ متى تعملين في منزل أبي (سليم)؟
- أكثر من أربع سنوات.
- يا (روز)، هل سمعتِ خلال هذه السنوات الأربع عن خادمة جاءت من بلدك اسمها (بِلشا)؟
- لا .. لم أسمع هنا بهذا الاسم، لكن في قريتي لدينا الكثير من (البِلشات).
- من يرقد معك في غرفتك؟

- لا يرقد أحد معي في غرفة الملحق العلوي.
- وماذا عن المرقد (المطوي) الذي شاهده زميلي العسكري؟
- هذا المرقد يكون جاهزًا لمن يأتي من ضيوف؛ من أقارب أم (سليم) الذين يأتون من القُرى، فتطلب مني الخالة أم (سليم) وضعه في هذا المجلس؛ ليرقد الضيف.
- هل تعرفين من خدم الجيران أحدًا؟
- نعم أعرف الكثير، منهنّ الآسيويات ومنهنّ الأفريقيات.
- هل تعرفين أحدًا من السائقين؟
- لا ..

يلتفت الملازم (سُهيل) إلى أبي (سليم)، وموجهًا الكلام للجميع:

- سنأخذ أرقام هواتفكم الخلوية، وربما نستدعيكم في أية لحظة مستقبلًا لمواصلة التحقيق.
- لن تجد في هذا الحي الفقير من أشباه المجرمين والمتطرفين والمحتالين على النظام والقانون.

سرعان ما انطلق لسان أبو (سليم) من سجنه، وتكلم بشجاعة وجرأة، عندما علم أن (بِلشا) الهاربة كان معها طفل صغير، وليست

الخادمة (بِلشا) التي مكثت في منزلهم عدة أيام، والبِلشات الأفريقيات كثيرات، كما قالت خادمتهم (روز).

فودع أبو (سليم) كلًّا من الملازم (سُهيل) وزميله العسكري (الذي لم يتفوه بكلمة واحدة طيلة فترة وجوده)، عند باب المنزل، رافعًا يده للأعلى، والملازم (سُهيل) يُكرر اعتذاره لأبي (سليم) بحرارة على هذه الزيارة المفاجئة لهم، فركبا السيارة، وأوهما أبا (سليم) بأنهما يغادران المنطقة بسيارتهما العسكرية، وفي حقيقة الأمر أنهما سيذهبان في مهمة لمنزل آخر مُكلفين بالتحقيق معهم. وبعد خروجهما وابتعاد سيارتهما قليلًا عن المنطقة، تقاطر على منزل أم (سليم) بعضُ جاراتها في الحي؛ من أجل الاطمئنان عليهم، رغم أن الوقت كان ليلًا وغير مناسب أبدًا للزيارات، وأن الزيارة في مثل هذه الأوقات غير مرغوب بها بالنسبة لرجال الحي، لكن أم (سليم) استقبلتهنّ عند باب الشارع بثوب الصلاة استقبالًا حسنًا؛ لمحاولتها دفع كل الشبهات التي قد تحوم حولهم، وطمأنتهنّ بهدوء، وشكرتهنّ كثيرًا على حرصهنّ، وقالت لهنّ: (كل ما في المسألة أنها اشتباه بالاسم، وخطأ في عنوان المنزل، فخرجنَ وهنّ يعتذرن منها).

تواصل الملازم (سُهيل) بالنقيب (مبارك) عبر الهاتف الخلوي بعد خروجه مباشرة من منزل أبي (سليم)، ونقل له الموجز عن التحقيق الذي

أجراه في منزل أبي (سليم)، وأرسل له أرقام هواتفهم الخلوية؛ من أجل مراقبتها، ومتابعة اتصالاتهم بعد هذه الزيارة المباغتة لهم، وكان الذي يهمهم جدًّا من بين أرقام هواتفهم رقم شريحة هاتف الخادمة (روز)، الذين اكتشفوا في سجل شريحتها لا يقل عن عشر مكالمات محلية ومكالمتين دوليتيّن، وبعد متابعة الأرقام العشرة عرفوا أن أحد هذه الأرقام قد تم معها في الليلة الماضية، وبالتحري عن رقم الشريحة عرفوا بأن رقم الهاتف يخص سائقًا هنديًّا اسمه (بابُل)، يُقيم في أحد أحياء الشمال، واستغربوا من هذا السائق الذي يملك شريحتين لشركتين مختلفتين من شركات الهواتف الخلوية، وكل من الشريحتين تعمل بنظام الشحن، فما كان تبريرهم لمثل هذه الحالة؛ إلَّا أن (بابُل) قد يستفيد من العروض التي تقدمها شركات الهواتف الخلوية للمستخدمين، عندما تتصاعد حرارة المنافسة بينهم في البلد، ولكن من الضروري استدعاؤه، ومعرفة العلاقة بينه وبين الخادمة (روز).

خرج الملازم (سُهيل) من المنزل الآخر المكلف بزيارتهم كذلك، والتحقيق معهم بنفس النتيجة وبنفس التصور عنهم، لا جديد في القضية، ولا شكوك تحوم حول وجود أثر للخادمة (بِلشا).

***

(13)

تستغل (بِلشا) أي فرصة مناسبة أمامها للذهاب لغرفة (بابُل)؛ لقضاء وقت ممتع معه .. منحها (بابُل) كل خبراته السابقة في الحب، عندما وجدها أرضًا بكرًا صالحة لغرس عواطفه المتعطشة، فهامت به حبًّا وودًّا وشوقًا، ووثقت به، وفتحت له باب قلبها على مصراعيه .. أخبرته عن أدق تفاصيل حياتها السيئة والحسنة، وعرف أين يُوجد مخدع أسرارها منذ أيام طفولتها، فلم يبقَ أمامها غير أن تُزيح الخادمة (ريتا) من طريقها؛ لتنفرد بحب وغرام حبيبها (بابُل)؛ فهي تعلم جيدًا أن الخادمة (ريتا) منافسة قوية وشرسة لها على هذا الحضن الدافئ، لم يسبق لأي رجل قبل (بابُل) أن سبر حياة (بِلشا)، وتوغل في غابة عواطفها المتوحشة .. لقد كانت شجون عواطفها مغلّقة الأبواب، ومرتفعة الجدران عن (عالم الرجال) .. لكن الخادمة الآسيوية (ريتا) بخبرتها منحتها تأشيرة عبور (من حيث لا تشعر)؛ للتعرف إلى هذا العالم المجهول بالنسبة لها، فاندفع (بابُل) بقوة نحوها، دون تفكير منه في

خطورة الموقف .. لم يحسب للعواقب المحتملة أية حسابات قانونية وجزائية .. أخذ مسألة التعرف عليها بكل سهولة، فتعامل مع مستقبل مجهول الهوية برعونةٍ، فوقف بجانبها قلبًا وقالبًا، مواسيًا لها، ومناصرًا لتصرفاتها بقوةٍ في جميع مواقفها التي تعرضت لها خلال مسيرة حياتها، فوقع فريسة في حبها، كفراشة تتجه بغباء شديد لضوء شمعة مشتعلة، فخطفته سريعًا من حضن (ريتا)، فعاش (بابُل) معها أجمل اللحظات الساخنة، فالتقى المد الآسيوي الجامح بالدفء الأفريقي المتعطش .. لم تمنعه من اقتراف أي منكر من الموبقات التي يُريد الوصول لساحل مينائها، فوصل بكل سهولة ويُسر لسهولها الخصبة دون مقاومة منها، فتدفقت مياه أنهار جباله المرتفعة نحو أرضها الصحراوية المتعطشة.

الكل يستعد لحفلة يوم غد، الذي سيتم فيه عقد قران الدكتورة (معاني) بالشاب (عبد السلام) .. فأم (معاني) يكادُ قلبها يطير فرحًا بهذا اليوم السعيد، الذي كانت تنتظره منذ زمن بعيد .. لقد تأخر مجيئه كثيرًا؛ بسبب دراستها الطويلة بكلية الطب .. لقد كانوا يرفضون تزويجها كلما تقدم خاطب لها بحجة دراستها الجامعية .. كانوا يخشون فشلها في الجمع بين واجبات الدراسة ومتطلباتها الكثيرة، وبين مسؤوليات الزوجة وحياتها الجديدة؛ لذا كانوا يؤجلون الحديث عن زواجها لما بعد التخرج من الجامعة، فأدى مثل هذا التأجيل المستمر في

تزويجها لتأخر زواج أختها (شاهة)، التي تصغرها بثلاث سنوات؛ بسبب رفض أهل (معاني) تزويج الصغيرة قبل الكبيرة؛ اتباعًا لمنهج العادات والتقاليد السيّئة السائدة في المجتمع، رغم كثرة المتقدمين لأختها الصغيرة، فوقع الظلم على أختها الصغيرة مرتين، حسب رؤيتها للواقع الذي تعيشه .. لقد رأت (شاهة) ذات الثلاثين ربيعًا، الضئيلة الحجم على شيء من الشحوب، ذات الوجه الصغير، الذي تَميّز بعينين كبيرتين، أن أهلها في بداية حياتها لم يُحسنوا تسميتها باسم (شاهة)؛ فقد خصوا أختها الكبيرة بكل شيء، بداية بالاسم الجميل (معاني)، وعندما أعلن رحم أمها عن يوم ميلادها تذكر والدها اسم أمه المُتوفاة قبل عدة سنوات من ميلاد أختها الكبيرة (معاني)، ففكر أن يُقدم لأمه قربانًا مجانيًّا (على حسابها الخاص) قبل وفاته؛ تقربًا لمحبتها ورضاها، وليتذكرها في ساعات يومه كلما غرد لسانه باسم ابنته (شاهة)، فقرر تسمية ابنته الثانية على اسم المرحومة والدته، ولا تعلم ابنته (شاهة) لماذا صحت مثل هذه الرغبة المتعسرة بالولادة عند أبيها إلا في يوم ميلادها، في يوم مجيئها للحياة؟ ولهذا السبب فإنها لا تهتم بيوم ميلادها، ولا تحتفل في ذكرى تاريخ يومه، ولا تضع ليوم ميلادها نصبًا تذكاريًّا من الشموع والورود والحلويات، كما يفعل عادة أقرانها من البنات، رغم اعتذار أبيها لها في أكثر من مناسبة، ثمّ لجأ لتغيير اسمها بالسجلات

المدنية والأوراق الرسمية إلى اسم (كلمات)؛ لكسب رضاها ومودتها، وبدأ يُفاخر بصوتٍ عالٍ في مجالس مجتمعه: أن في بيته اسمان جميلان؛ الأول (معاني)، والآخر (كلمات)، إلَّا أنّ مجتمعه الضيق الأفق مصرٌّ على تسميتها باسمها القديم (شاهة)؛ ليزيدها عذابًا جديدًا فوق عذابها الواقع عليها.

فوجئت أم (معاني) بنقص عقد الماس حين أحضرت علبة المجوهرات التي كانت تحتفظ بها في الخزنة الحديدية الموضوعة بداخل غرفتها الخاصة، فسألت ابنتها (معاني) عنه، فربما تكون احتفظت به بعد نهاية (بروفة) ليلة البارحة، ولم تُعده للعلبة، بعد عودتهم من صالة الأفراح؛ فقد قامت مصممة الديكور بعمل (بروفة) ناجحة لها، رقص فيها من حضر تلك (البروفة)، لكن (معاني) أنكرت معرفتها، وقالت لأمها بصوتٍ مرتفع:

- أنتِ يا ماما من أخذ كل الذهب ووضعه بداخل العلبة .. لقد كانت العلبة بحوزتك منذ خروجنا من صالة الأفراح حتى عودتنا للمنزل، وأنا رأيتكِ تفتحين العلبة مرتين قبل خروجنا من الصالة؛ للتأكد من وجود كل الذهب بداخلها قبل صعودنا السيارة، ورأيتك كذلك تضعين العلبة بداخل الكيس، وأنتِ يا ماما من حمل الكيس ليضعه بداخل الخزنة الحديدية مباشرة

بعد عودتنا، مع باقي الذهب في غرفتكم، فكيف يا ماما اختفى العقد دون غيره؟

- فعلًا هذا ما تم يا (معاني)، نعم قبل عودتنا من صالة الأفراح شاهدت العقد بالعلبة، وأنا من وضع العلبة بداخل (الخزنة) مباشرة بعد عودتنا، وأنا متأكدة أني أغلقت الخزنة الحديدية جيدًا، وأعلم أن أباكِ لديه نسخة أخرى من مفتاح الخزنة .. فاتصلت عليه توًّا، وأخبرته بفقدان عقد الماس من العلبة التي كانت بداخل الخزنة، فأنكر معرفته بهذا العقد وبالذهب كله، وقال لي: ابحثوا جيدًا في حقائبكم وفي غرف نومكم، وفي غرفة الخدم .. علينا أن نجده سريعًا، أو سأضطر لإخبار قسم الشرطة عن هذا الحادث؛ لأنها تُعتبر سرقة، ولا نعلم كيف تمت.

ذهب أبو (معاني) لمركز شرطة الحي سريعًا؛ ليبلغهم عن اختفاء عقد الماس في منزلهم قبل أن يتصرف السارق به، تُقدر قيمته بمبلغ لا يقل عن المائة ألف ريال، كانوا يحتفظون به بداخل خزنة حديدية موجودة في غرفة النوم الرئيسية، ويملك مفتاحها هو وزوجته .. نقل لهم أبو (معاني) كل أحداث القضية .. طلبوا منه الذهاب معه فورًا للمنزل؛ لمعاينة الموقع، وأخذ أثر البصمات، بعد أن قيدوا كل تفاصيل القضية

بمحضر خاص، وعرفوا أسماء من هو موجود معهم بالمنزل، بما فيهم الخدم والسائق، وسألوه عن الفترة الزمنية التي اختفى فيها (العقد).

وفي لحظة دخول رجال الشرطة بالثياب العسكرية، يقودهم أبو (معاني) لباب صالة منزله، رأتهم الخادمة (بِلشا)، التي كانت تتحدث مع صديقتها (روز) بالهاتف الخلوي، وكانت (روز) تحكي لها عن قصة التحقيقات التي جرت معها ومع أم (سليم) وأبي (سليم)، وسؤالهم جميعًا عن الخادمة (بِلشا)، فواصلت (روز) حديثها؛ لتطمئنها عن ما جرى:

- لقد أنكرنا نحن الثلاثة معرفتكِ تمامًا .. هم كذلك يبحثون عن طفل صغير، قالوا: لقد خطفته الخادمة (بِلشا) .. فهل هذا الذي سمعناه صحيح يا (بِلشا)؟ ماذا فعلتِ بالطفل (عامر) يا بِلشا؟

فأغلقت (بِلشا) الخط فورًا، دون ردٍّ على سؤال (روز)، التي عاودت الاتصال بها مرة أخرى من جديد؛ لمعرفة الجواب على سؤالها، فاضطرت (بِلشا) أن تلغي المكالمة من أول رنة لجهاز هاتفها، ثمّ تُغلق الهاتف؛ لتمنعها من معاودة الاتصال بها مجددًا، ثمّ اختبأت سريعًا خلف السيارة المركونة في المرآب؛ خوفًا من رؤيتهم لها، وفي أثناء دخولهم لمبنى (الفيلا) عبر باب الصالة الرئيسي فتحت (بِلشا) باب المرآب، وهربت تركضُ خوفًا بلا شعور، وتركت باب المرآب مفتوحًا؛ ظنًّا منها أن الشرطة قد

اكتشفوا مكانها مرة أخرى، وجاءوا الآن ليقبضوا عليها .. لم تنتبه (بِلشا) لشدة خوفها من مطاردتهم لها لتقاطعات شوارع الحي الخطرة، رغم وجود اللوحات التحذيرية بشكل واضح جدًّا، فكان قدرها أن تأتي سيارة مسرعة جدًّا فتصدمها .. لم يُراعِ سائقها الشاب خطورة تقاطعات شوارع الأحياء، فقذفها صدام السيارة عدة أمتار؛ ليرتطم رأسها بجدار سور أحد المنازل، ويهرب الشاب بسيارته مذعورًا بسرعة، تاركًا خلفه الخادمة (بِلشا) تئن بصوت خافت لعدة دقائق .. ترتجف أطرافها .. تنزفُ دمًا من رأسها وأنفها وفمها، فتجمع بعض المارة في مكان الحادث .. تبرع أحدهم بإحضار غطاء (مفرش) من منزله لستر (بِلشا)، وسرعان ما حضرت سيارة المرور ورجال الشرطة لمعاينة موقع الحادث، ثمّ طلبوا عربة إسعاف، تُحاول عبثًا بصفيرها اختراق الزحام في مكان الحادث؛ من أجل حمل (بِلشا) لأقرب مستشفى .. لم يتعرف الجميع على هوية (بِلشا) بداية، وتردد أبو (معاني) كثيرًا بالتبليغ عن اسمها؛ خوفًا من تحمل مسؤوليات لا تُحمد عقباها؛ لعدم وجود أوراق رسمية ونظامية للعمل في منزلهم، لكنه سرعان ما تراجع عن قراره، فأخبر رجال الشرطة المتواجدين في مكان الحادث عن اسمها؛ بسبب شكه بأنها هي التي سرقت عقد الماس، وأرادت أن تهرب عندما شاهدت دخول رجال الشرطة لباحة (الفيلا)، فطلب رجال الشرطة من أبي (معاني) البحث

عن (العقد) في أماكن تواجد الخادمة (بِلشا)، أو في أي مكان آخر بالمنزل، فربما تكون قد خبأت عقد الماس، ويبقى السؤال المُحيّر للجميع: كيف سرقت (بِلشا) العقد؟ ومتى تمت السرقة؟ وكيف سرقته وأم (معاني) متأكدة من إعادة (العلبة) للخزنة الحديدية بعد عودتهم مباشرة من (البروفة)؟

وفي غضون دقائق قليلة يتواجد كل من النقيب (مبارك) والملازم (سُهيل) بالمستشفى، عندما ورد لقسم (التحري والتحقيقات) اتصال هاتفي مستعجل من قسم شرطة الشمال، يخبرهم عن وجود مكان الخادمة الهاربة (بِلشا)؛ ليقف (مبارك) بسرعة عند رأسها في غرفة العمليات، منتظرًا سرعة إنعاشها بأي طريقة كانت، وبأي وسيلة متاحة للأطباء، ومن أصعب لحظات العمر بالنسبة للإنسان عندما يُشاهد أجنحة النفس ترف وتستشعر أنها على تخوم العالم الآخر، وهذه هي المرة الأولى التي يُشاهدُ فيها النقيب (مبارك) وجه الخادمة (بِلشا)، ويرجو من الله أن تتكلم، ويسمع منها خبرًا عن الطفل المختطف (عامر)، ورغم الجهود الكبيرة التي بذلها فريق الأطباء بقسم الطوارئ، بين إيقاف نزيف الدم الحاد الذي يتدفق من رأسها، وبين محاولاتهم الجادة لأكثر من مرة لإعادة نبضات قلبها لوضعه الطبيعي، إلَّا أنّ قلبها يُفاجئ فريق الأطباء بتوقفه عن النبض تمامًا، رغم محاولات الإنعاش، فتُفارق

(بِلشا) الحياة، وتلفظ أنفاسها الأخيرة بين يدي الأطباء في قسم الطوارئ، وتطوي معها سر اختفاء الطفل (عامر)؛ لتترك الأمر محيرًا للنقيب (مبارك) وفريق عمله في قسم التحريات والتحقيقات.

سرعان ما يستدعي النقيب (مبارك) (بابُل)؛ للتحقيق معه بخصوص علاقته الغريبة مع الخادمة (روز) بحضور المترجم .. يستغرب (بابُل) من استدعائه لمركز الشرطة:

- يا (بابُل): ما سر علاقتك مع (روز)؟
- من هذا (روز)؟ لا أعرف أحدًا باسم (روز).
- إنها خادمة أفريقية تُقيم في الحي الشعبي بوسط المدينة
- لا أعرف خدمًا بهذا الاسم، ولا أعرف أحدًا بالحي الشعبي، ولم أذهب لهذا الحي مطلقًا.
- في شريحة هاتفك الخلوي عدة مكالمات مع الخادمة (روز).
- ليس بيني وبين الخادمات أي تواصل، غير الخادمتين؛ الآسيوية (ريتا) والأفريقية (بِلشا)، التي تُوفيت يوم أمس بحادث دعس سيارة .. يتواصلان معي بالهاتف من أجل طلباتهما، التي أشتريها لهما من أقرب (دكان).
- كم رقم هاتف (بِلشا)؟

فاستغرب النقيب (مبارك) من الرقم الذي ذكره له (بابُل)؛ إذ يجده نفس الرقم الذي يتواصل مع الخادمة (روز) حسب بيانات شريحة رقمها؛ لذا ظن رجال قسم التحريات في البداية أن هذا الرقم للسائق (بابُل)؛ لأنه مسجلٌ باسمه في سجل شركة الهاتف الخلوي، وأخيرًا اكتشفوا بأن (بابُل) هو من قام بشراء شريحة هاتف خلوي للخادمة (بِلشا)، رغم كثرة التحذيرات الأمنية من قبل الجهات الرسمية.

- (بابُل): ما سر العلاقة بينك وبين الخادمة (بِلشا)؟
- قلت سابقًا، ليس بيني وبينها أية علاقة.
- قالت لنا الخادمة الآسيوية (ريتا) بأن (بِلشا) تزورك بالغرفة ليلًا، هل هذا الكلام صحيح؟
- هذا الكلام ليس له صحة، وربما غيرة من (بِلشا).
- لماذا تغار (ريتا) من (بِلشا)؟ هل رأت منك أو منها شيئًا يُضايقها؟
- لا أعلم، ربما لأني ساعدتها بشراء هاتف وشريحة شحن لها، وأكثر من مرة طلبت مني شراء حاجيات خاصة بالنساء لها.
- ألم تعلم بأن شراء شريحة هاتف خلوي لغيرك باسمك مخالف للقانون في البلد؟

- نعم أعلم، لكن الخادمة (بِلشا) وعدتني باستبدالها قريبًا عندما تأتي بهويتها الشخصية.
- يا (بابُل): سوف نحتفظ بك هنا في التوقيف إن لم تكن صادقًا وصريحًا معنا، وتخبرنا عن العلاقة التي بينك وبين الخادمة (بِلشا)، أو أن تُخبرنا إن كانت (بِلشا) قد قالت لك شيئًا عن اختطافها لطفل صغير اسمه (عامر)؟
- لا .. لم تخبرني، ولم أكن أعلم بأنها مجرمة وهاربة، وأنها مختطفة لطفل صغير.

التفت النقيب (مبارك) للمترجم الجالس بقربه وقال له:

- قل للسائق (بابُل) إن لم يتعاون معنا، ويعترف بالحقيقة، ويخبرنا عن ما يعرف بخصوص الخادمة (بِلشا)، فسينال العقوبة بالتوقيف مؤقتًا، والاشتراك بالجريمة معها مستقبلًا، قل له إن الكذب واللف والدوران، والتظاهر بعدم المعرفة، لن ينقذه من العقاب قريبًا، ومن الأفضل له أن يُخبرنا أين الطفل (عامر)؟ فتكلم المترجم مع (بابُل) بلغته الخاصة، ووجده مصرًّا على أقواله، وأنه قد قال لهم ما يعرف عن الخادمة (بِلشا).

احتار أبو (معاني) في ما يفعل بشأن غياب سائقهم الموقوف، بعد أن تم إلغاء موعد حفل عقد المهر، وتأجيله ليوم آخر في قادم الأيام، ودائمًا

تأتي الأقدار للناس بعيدًا جدًّا عن حساباتهم الأرضية، فبحث أبو (معاني) عن سائق آخر يسد لهم حاجة مشاوير العائلة، ريثما يُفرج عن سائقهم (بابُل)، ويُكشف عن علاقته بالخادمة المجرمة (بِلشا) التي تُوفيت؛ فقد أرهقته كثرة المشاوير، فتواصل مع أحد مكاتب الاستقدام الرسمية؛ طالبًا منهم سائقًا، فأرسلوا له سائقًا عربيًّا، وبعد ساعة من وصوله لمنزلهم أعاده أبو (معاني) للمكتب، واشترط عليهم أنّ السائق لا يتكلم اللغة العربية، وأن لا يفهم منها شيئًا أبدًا، ويُفضل أن يكون من شرق آسيا، فأرسلوا له سائقًا آخر اسمه (قاسم)، وفور وصوله طلب منه أبو (معاني) أن يجد له سكنًا قريبًا من منزلهم بصورة مؤقتة، وسوف يدفع له قيمة الإيجار، فغرفة السائق (بابُل) مغلقة الآن بأمر من مركز الشرطة.

سلم أبو (معاني) السائق الجديد (قاسم) جهاز (ريموت) المرآب، ومفتاح السيارة الكبيرة (الصالون)، وزوده برقم هاتفه الخلوي؛ للاتصال به عند الضرورة، وعندما دخل أبو (معاني) المرآب برفقة السائق (قاسم)، شاهدا العجلة الأمامية للسيارة بحاجة لزيادة في كمية ضغط الهواء، يجب استبدالها بالعجلة الاحتياطية، فترك أبو (معاني) المهمة للسائق (قاسم)؛ من أجل استبدالها، وطلب منه أن يتصل به فور انتهائه من استبدالها، وتركه لوحده لإنهاء المهمة، ودخل (الفيلا) لينال قسطًا

من الراحة، وبعد دقائق قليلة من دخوله لصالة المنزل رن جهاز هاتف (أبو معاني) برقم اسم السائق (قاسم)، فحوقل أبو (معاني) بصوتٍ مرتفعٍ، ثمّ قال في نفسه: (لعله خير إن شاء الله، وأظنها هذه بداية المشاكل مع سائقنا الجديد)، فذهب للمرآب لمعرفة مشكلته، وفي نفسه شك أكيد أن يكون قد أنهى (قاسم) استبدال العجلة بمثل هذه السرعة، بالتأكيد أنّ (قاسمًا) لم يعثر على العجلة الاحتياطية، ولكن (قاسمًا) فاجأ أبا (معاني) بتسليمه كيس نايلون شفاف لونه أزرق، يحتوي على عقد الماس المسروق منهم، وقال له:

- لقد وجدتُ هذا الكيس فوق العجلة الاحتياطية .. سقط مع العجلة عندما فتحت المسمار.

استغرب أبو (معاني) من عملية السرقة، كيف سرق (بابُل) هذا العقد من الخزنة الحديّدية؟ كيف وصل (بابُل) لغرفة النوم وفتح خزنة الحديد؟ فحرص أبو (معاني) كثيرًا على نقل الكيس سريعًا بما فيه، دون لمس (العقد) للنقيب (مبارك)؛ ليتعرفوا على آثار البصمات، ويُخبره كيف عثروا عليه.

استدعى النقيب (مبارك) سريعًا السائق (بابُل) مرة أخرى من غرفة التوقيف بالدور الأرضي؛ لإجراء التحقيق معه حول المستجدات الأخيرة، طالبًا مساعدة المترجم:

- يا (بابُل): قل لنا كيف سرقت عقد (الماس)؟
- عن أي عقد تتحدث؟
- وهل سرقت عقودًا كثيرةً يا (بابُل)؟
- لم أسرق شيئًا .. ولا أعلم عن ماذا تتحدث.
- يا (بابُل) أرجوك لا تُماطل معنا، عليك أن تعترف من أجل التعاون معك ومساعدتك، أنا أتحدث عن عقد (الماس) الخاص بالآنسة (معاني).
- لا أعلم عن هذا (العقد) شيئًا .. سمعتُ من حولي يتحدثون عن اختفاء عقد (الماس)، ويشكون في الخادمة (بِلشا) بسبب هروبها.
- كيف لا تعلم يا (بابُل) وقد وجدنا آثار بصماتك على (العقد) المسروق؟ والذي وضعته بداخل كيس نايلون شفاف لونه أزرق .. خبأته فوق عجلة (الاحتياط) أسفل سيارة (الصالون)؟
- لا .. لا .. لم أسرق، ولم أخفِ شيئًا فوق عجلة (الاحتياط)، وأنا لستُ بجديد معهم، ولهم فضل علي كثير، وهم يعرفون أمانتي وصدقي معهم، فعائلة أبو (معاني) يثقون بي في أشياء كثيرة .. اسألهم لو سمحت.

- يا (بابُل): إن لم تعترف لنا، وتساعدنا في كشف بعض الملابسات، فستكون متورطًا بأكثر من قضية .. سيُحكم عليك من خلالها، وأصعب هذه القضايا التي سوف تتورط فيها قضية سرقتك (عقد الماس)، والتي أنت متلبس بها بشهادة بصماتك، وتستحق عليها الحد الشرعي بقطع يدك من المعصم، ثمّ القضية الثانية تعاونك مع خادمة مجرمة هاربة، يبحث عنها رجال الأمن منذ فترة، ثمّ بناء قصة حب وغرام غير شرعية مع خادمة، ونحن كجهاز أمن في البلد لحد الآن مازلنا نبحث عن طفل صغير (مفقود) لا ذنب له، لا نعلم ماذا فعلت به هذه الخادمة المختلة عقليًّا .. لقد خطفته أثناء هروبها من منزل سيدها، وأخيرًا سوف تتورط بقضية شرائك شريحة هاتف خلوي باسمك .. استخدمتها مجرمة هاربة من العدالة. لكن يا (بابُل) وعدٌ مني بمساعدتك بالعفو عنك بخصوص سرقة (العقد) .. سأطلب من أبي (معاني) أن يتنازل عن قضية السرقة، وسأطلب منه سحب الدعوة المقدمة للشرطة، بشرط أن تُخبرنا عن علاقتك بالخادمة (بِلشا)، وأن تُخبرنا أين خبأت الطفل الصغير (عامرًا) الذي خطفته يوم هروبها من منزل

سيدها، وأن تُخبرنا كيف سرقتَ العقد من الخزنة الحديدية الموجودة بداخل الغرفة.

فانهار (بابُل) نفسيًّا أمام هذا العرض المغري المُقدم له من قبل النقيب (مبارك)، بعد أن علم اكتشافهم لمكان عقد الماس، ووجود أثر بصمات أصابع يده، كشاهد ثابت على إدانته بسرقته للعقد .. لم يكن يُفكر في حينها، أن اكتشافهم لسرقته سوف يكون بمثل هذه السهولة .. لقد ظن أن المخبأ الذي وضع به العقد كان آمنًا جدًّا، وبعيدًا عن متناول اليد والأنظار .. لم يحسب لمثل هذه الأحداث والمفاجآت أية حسابات أبدًا، وهذا ما يؤكد له ولغيره من المجرمين العابثين بأمن الوطن مقولة: (بأن المجرم لابد أن يترك خلفه أثرًا سلبيًّا لسوء جريمته)؛ لذا فضل (بابُل) الاعتراف بكل شيء مقابل الفوز بوعد النقيب (مبارك)؛ خوفًا من تراجعه، وبدلًا من دخوله مع رجال الأمن فيك متاهات وتعقيدات التحقيقات التي يُشاهدها في الأفلام السينمائية عادةً، ولم يجربها من قبل، ولا يعلم (بابُل) عن قدرات نفسه على قوة تحملها، ولم تُختبر مقاومته سابقًا، فتكلم بفم جاف كأنه حقيبة أسرار محكمة الإغلاق، يخافُ من فتحها، فتطيش منها أوراق إدانته، يرتجف لسانه قليلًا بالكلمات:

- عندما طلبت مني أم (معاني) أن أتوقف قليلًا عند أحد محلات الحلويات المشهورة، نزل كل من في سيارة (الصالون) للمحل؛ لمشاهدة ترتيب أواني حلويات الحفلة بعد أن تم تغليفها، فرأيت علبة الذهب بداخل كيس مركون فوق المقعد الخلفي، ففتحتُ العلبة بسرعة وأخذتُ العقد الماس منها، فلم يشعروا بذلك عند عودتهم من محل الحلويات، ولا أعلم كيف أغراني الشيطان بمثل هذه الفعلة الشنيعة.

هذا ما قاله المترجم للنقيب (مبارك) بعد انهيار (بابُل) وسقوطه فوق الأرض، فحضر الطبيب حالًا؛ من أجل محاولة إفاقته من غيبوبته، وقد تم للدكتور ما أراد، فأعاده من جديد لحالته الطبيعية، فسأله النقيب (مبارك)، عن الطفل (عامر) الذي اختطفته الخادمة (بِلشا) .. فتحول لون بشرة (بابُل) السمراء إلى معركة متخاصمة الألوان، وتكلم بمشقة من لسانٍ جفتّ عروقه، بكلمات مبعثرة الحروف وجُمل قصيرة متقطعة وغير مترابطة، يُحاول بصعوبة لَمَّ شتات حروفها وكلماتها، تخرج من حنجرته كأنها سكاكين تجرحه من الداخل، وعيونه تنظر إليهم بخوفٍ ورجاءٍ:

- إن الخادمة (بِلشا) هي من أغواني لوكر عشقها، فاندفعتُ بسهولةٍ في مجرى صفقة مجهولة، مبعثها الخيال والشهوة البشريّة

العابرة .. لم أكن أعلم بأني كنتُ أنسج بيتًا من بيوت العنكبوت، بيتًا واهيًا من العواطف المتأججة، فاستجبتُ بعنفٍ لرغبتها، واستسهلتُ الخطر، واستهنتُ الوقوع في الذنب والخطأ، ولم أفكر أبدًا في عواقب أمر افتضاحي من قبل رجال الأمن والقانون .. كنا بدايةً نكتشف بعضنا بعضًا بدون أن نتوقف أمام أي عائق يحد من نمو علاقتنا وتطورها .. كانت علاقة ملتهبة جدًّا، تتصاعد نيران حريقها مع مرور الوقت .. لقد دعتني بجدارةٍ لإقامة علاقة حب ساخنة معها؛ لممارسة كل ما هو مشاع بين رجل وامرأة دون خوف من أحدٍ، كانت (بِلشا) تزورني بغرفتي كلما اشتاقت لعواطفي، وكلما سنحت لها فرصة مناسبة لزيارة مرقدي الدافئ، لقد فتحتْ لي قلبها على مصراعيه، فأخبرتني عن كل أسرارها، وعن كل صغيرة وكبيرة بحياتها في ساعات دفء الغرام .. ولقد نسيت (بِلشا) وصيّة أم (سليم) لها، عندما قالت لها: (احفظي أسرار الآخرين، ولا تدعي سركِ عند أحد من الناس مهما كانت مكانته)، فقلتُ لها ذات ليلةٍ وأنا أدغدغ مشاعرها: (لا قيمة للأسرار إن لم يُشاركك فيها أحدٌ، ونحن لا نعلم متى تضع الأقدارُ في طريقنا أشخاصًا مثلك صعبٌ علينا نسيانهم)، فتأثرتْ من حديثي لها،

وحكتْ لي عن شدة كراهيتها لسيدتها (سحر)، التي خلقتْ منها إنسانة أخرى، بشعة في حق الإنسانية، ومجرمة بحق القانون، قالتْ لي (بِلشا) في أحد الأيام، وهي تتحدث بحرقة وألم عن سيدتها السابقة (سحر): (لقد كانت تُفرق بينها وبين الخادمة الآسيوية ليدا)، فكانت (بِلشا) تضحك من أعماقها بقهقهات مجنونة، وتقول: (لقد انتقمتْ منها شر انتقام .. لقد حرقتُ لها فؤادها .. لقد خطفتُ ابنها (عامرًا)، الغالي العزيز عليها، في غفلة من الساذجة (ليدا) التي وثقت بها، ثمّ فتحتُ غطاء خزان الماء الأرضي، فرميتُ ابنها (عامرًا) بداخله، وأعدتُ غطاء الخزان لمكانه مثل ما كان سابقًا قبل خروجي من منزلهم، وكأن شيئًا لم يكن.

ثمّ سقط (بابُل) مرة أخرى مغشيًّا عليه من شدة التعب والإرهاق، منهكًا ومنهارًا؛ ليباشر دكتور الطوارئ المُتواجد بقربهم مهمته في الإسعافات الأولية، فيضطر أن يطلب من النقيب (مبارك) الموافقة على سرعة نقله بعربة إسعاف لأقرب مستشفى .. فهز النقيب (مبارك) رأسه بالموافقة، وتم للدكتور ما أراد من نقله تحت حراسة أمنية، بينما كان النقيب (مبارك) مذهولًا جدًّا مما سمع من المترجم، ظلت أنظاره واقفة حائرة دون حركة، ثمّ وضع يديه على جانبي رأسه، كأنه يُريد أن يعصر ما

في داخله، متحديًا بذلك مقدرته على الإدراك والفهم، محاولًا تجاوز الواقع، مسرفًا كثيرًا في مواساة نفسه، من هول اعتراف (بابُل) .. يُحاول أن يتخيل كيف سينقل مثل هذا الخبر لكل من (عبد المجيد) وزوجته (سحر)، ماذا سيقول لهما؟ .. ثمّ راح يُردد كلمات (بابُل) الأخيرة بين شفتيه بدون شعور:

- خزان الماء .. خزان الماء ..

بفضل الله تمت ..

الرياض في 26/ 09/ 2017م